الصحيفة ومراحل تطورها
في الكتابات التاريخية

دكتور

محمد السعيد محمد بركات

مدرس الحضارة الإسلامية

بكلية اللغة العربية بالمنصورة

الملخص

لم يولد لفظ الصحيفة فجأة في الكتابات التاريخية، بل له جذور ضاربة في أعماق التاريخ منذ أن بدأ الله الخليقة،فكانت ميثاق الله تعالي إلي أنبياءه،ليرشدوا به البشر إلي معرفة سر وجودهم ومعرفة الطريق إلي عبادته جل في علاه، فكان التمهيد للصحيفة قبل الإسلام، وبقي لفظ الصحيفة إلي عهد نبينا المصطفي ﷺ، فعندما كان ﷺ في مكة وكانت مقاطعته ﷺ وبنو هاشم أحبت قريش أن تعلم بها القبائل أجمع في كل الجزيرة العربية فعلقتها في صحيفة بأستار الكعبة، وحينما ذهب النبي ﷺ إلي المدينة كان من أول ماقام به أن وضعًا ضوابطًا لكل من يعيشون بها وكتب ذلك في وثيقة المدينة ليعلمها الجميع ويحترمون مابها ولا يتجاوزوه، فكان ذلك المبحث الأول: الصحيفة في صدر الإسلام، ثم بعد ذلك دراسة لفظ الصحيفة في العهدين الأموي والعباسي حيث بدأ لفظ الصحيفة يتواري في الكتابات التاريخية مع نهاية القرن الثالث الهجري /العاشر الميلادي لانتشار التدوين وازدهار صناعة الورق وكثرة حوانيت الوراقين فكان ذلك المبحث الثاني، أما المبحث الثالث : فكان عن عودة لفظ الصحيفة ثانية في العصر الحديث في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي مع ظهور الطباعة وظهرت الدوريات تبعًا لذلك في أوروبا ثم انتقالها إلي مصر؛ ومن هنا أصبحت الصحف تجوب العالم واختلفت أهواء وآراء محرريها، وأصبحت تسيطر علي عقول الناس وأفكارهم حتي يوم الناس هذا، والرابط بين كل هذا أن الناس قديمًا كانوا لايثقون فيمن يكتب في صحيفة، ويعتمدون أكثر علي من ينقل الخبر أوالرواية من معلم، وأصبح الآن هو الفكر الذي يسيطر علي الناس تجاه كل صحفي أن

لايؤخذ كلامه موضع ثقة؛ لأنه لا يعرف أحد حقيقة مصدره، وإلي أي مدي تأثرت كتاباته بآراءه الخاصة وأهوائه الشخصية .

الكلمات المفتاحية: الصحيفة- التصحيف- الوراقة – التحريف – الدوريات – الصحافة الصفراء - الطباعة.

دكتور
محمد بركات
قسم التاريخ والحضارة
كلية اللغة العربية بالمنصورة
جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية
mohammedbarakat.32@azhar.edu.eg

Abstract

The newspaper's word was not suddenly born in historical writings. Rather, it has roots in the depths of history since God began the creation, so God's covenant was to His prophets, to guide people to know the secret of their existence and to know the way to His worship in the Most High, so the introduction to the newspaper was before Islam, The word remained until the time of our Prophet Mustafa, peace be upon him And peace, when the Prophet, peace and blessings of God be upon him, was in Makkah, and his district, may God bless him and grant him peace, and the children of Hashem loved the Quraysh to know the entire tribes in all of the Arabian Peninsula, and I made them in a newspaper in the Star of the Kaaba. They set controls for all who live and wrote it In the Madinah document for everyone to know and respect what they do not exceed it, so that was the first topic: the newspaper is at the forefront of Islam, and then after that the study of the word's pronouncement in the Umayyad and Abbasid covenants where the pronunciation of the newspaper began to disappear in historical writings at the end of the third AH / tenth century AD for the spread of blogging and the prosperity of industry Paper, And the abundance of Al-Warraqin stores was that the second topic, and the third topic: It was about the return of the newspaper's name again in the modern era in the eleventh century AH / seventeenth century AD with the advent of printing and periodicals appeared accordingly in Europe and then moved to Egypt; Hence, newspapers became roaming around the

world, and the whims and opinions of their editors differed, and they controlled people's minds and thoughts until this people's day

And the link between all of this is that old people did not trust whoever writes in a newspaper, and they rely more on someone who reports the story or the novel from a teacher, and now it is the thought that controls people towards every journalist that his words are not taken as a trust, because no one knows the truth of his source, and to what The extent to which his writings were influenced by his own opinions and personal whims The newspaper- Cleaning up- printing-

Keywords: Yellow press -Paper- - Periodicals

Mohamed Barakat
Department of History and Civilization
Faculty of Arabic Language, Mansoura
Al Azhar University, Egypt.
mohammedbarakat.32@azhar.edu.eg

المقدمة

الحمد لله الذي جعل في كل فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فما أحسن أثرهم على الناس! وما أقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد؛

الإسلام هو دين الإعلام بامتياز! فقلما تجد دينًا في الدنيا يحظى بهذه التغطية الإعلامية الكبيرة التي يحظى بها الإسلام، بل إن الإسلام والإعلام مرتبطان ببعضهما البعض منذ فجر الرسالة، فالحرب الحقيقية التي خاضها رسول اللَّه ﷺ في بداية الدعوة هي الحرب الإعلامية، هذه الحرب هي أصعب ألف مرة من الحرب التقليدية، فهي حربٌ مفتوحة دائمًا من الطرف المعادي للإسلام، يستخدم فيها العدو أشرس أنواع الأسلحة الإعلامية في بعض الأحيان، وفي أكثر الأحيان يستخدم أقذرها! لذلك انتبه رسول اللَّه ﷺ بحكمته المعهودة لهذه الحرب، فأسس وحدة من المجاهدين الأبطال، مهمة هذه الوحدة كانت تفوق باقي المهمات العسكرية بالأهمية في كثيرٍ من الأحيان، هذه الوحدة هي وحدة الإعلام الإسلامي، شكَّلها رسول اللَّه ﷺ من الشعراء بالتحديد، وسبب اختيار الشعراء بالذات يكمن في أن الشعر كان هو وسيلة الإعلام الوحيدة بين العرب، وليس عندي من الشك أدناه، بأنه لو كانت هناك صحفٌ في عهد رسول اللَّه ﷺ، لجنّد لها بعض الصحفيين الإسلاميين! فقوة الكلمة في الإسلام لا تقل عن قوة السيف أبدًا، بل إنها كما وصفها رسول اللَّه ﷺ أشد

على الكفار من نضح الإبل! وما انتشر الإسلام في الجزيرة العربية إلا بكلمات خرجت من فم محمد بن عبد اللَّه، وما حكمنا العالم من أقصاه إلى أقصاه إلى بكلمات من أفواه الدعاة، وما تخلفت هذه الأمة إلّا بعد إهمال المسلمين للإعلام والإعلاميين، فصارت أمنية الوالد المسلم أن يجعل من ولده طبيبًا أو مهندسًا، أم الإعلامي فهي مهنة ابتعد عنها المسلمون، مع العلم أن الإعلام الإسلامي يعتبر فرضًا من الفروض! فالإعلام هو الكلمة المرادفة للدعوة، ودعوة البشرللإسلام وتوضيح صورة الإسلام لغير المسلمين هو فرض على المسلمين، فأقوى سلاح يملكه المسلم هو الكلمة(١)

وماكانت الصحف المنزلة علي رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم إلا لنبذ الناس لأفكارهم ودياناتهم القديمة وإعلامهم بتعاليم دين الله جل في علاه، وما كانت صحف المعلقات السبع من الشعر القديم، وصحيفة المقاطعة بين قريش وبنوهاشم معاندين النبي ﷺ، وصحف البيعة من الخلفاء لأبنائهم تعلق بأستار الكعبة إلا لإعلام قبائل العرب بها رغم قلة القارئين والكاتبين آنذاك،واستمرت أهمية الصحيفة علي مدي العصرين الأموي والعباسي حتي نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي،حتي توارت بظهور الورق والتقدم في صناعته وتداوله في كافة أقاليم العالم الإسلامي، لكن مع بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي،ومع بداية التبعية المصرية للدولة العثمانية،بدأ ظهور لفظ الصحيفة في أوروبا،لكن في حدود ضيقة، لكن مع ظهور الدوريات في القرن الحادي عشر الهجري /السابع عشر الميلادي:

---

(١) جهاد التُربانى: مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التـــاريخ، دار التقـــوى، القاهرة، ط١، ١٤٣١ هـــ / ٢٠١٠ م، صـــــ٣٧٧.

أنطلق لفظ الصحيفة ليس فقط ليغزو كل بلدان العالم، بل للسيطرة الكاملة علي عقول الناس وأفكارهم في شتي بقاع الأرض حتي يوم الناس هذا.

وقد تم تقسيم البحث بناءً علي ذلك إلي تمهيد وثلاثة مباحث كالتالي:

التمهيد: معني الصحيفة ودلالتها وينقسم إلي:

١ – ماهية الصحيفة.

٢– الصحيفة قبل الإسلام.

المبحث الأول: الصحيفة في صدر في الإسلام.

المبحث الثاني: الصحيفة في العصرين الأموي والعباسي .

المبحث الثالث: الصحيفة في العصر الحديث.

التمهيد

معني الصحيفة ودلالتها

ماهية الصحيفة:

الصحيفة هي الكتاب، والجمع صحف وصحائف، وقيل:مصحف لأنه مجمع الورق الذي يصفح فيه من مصحف، كمكرم ومن قال مصحف بفتح الميم جعله من صحفت مصحفًا مثل جلست مجلسًا ومن كسر الميم شبهه بِمِنْقَلٍ(١)

والصحيفة المبسوط من كل شيء: كصحيفة الوجه، والصحيفة التي يكتب فيها والمصحف ما جعل جامعًا للصحف المكتوبة، والصحفة قصعة عريضة،والصحفة قصعة مستطيلة،والصحيفة قطعة من جلد أو قرطاس كتب فيه وإذا نسب إليها قيل صحفي بفتحتين ومعناه يأخذ العلم منها دون المشايخ(٢) وأما قولهم: صحف فلان ما رواه، وجاء بالمصحّف؛ فقد أجاب أهل المعاني في معناه، فقالوا: أما معنى قولهم (التصحيف) فهو أن يقرأ الشيء بخلاف ما أراد كاتبه وعلى غير ما اصطلح عليه في تسميته، وأما لفظ (التصحيف) فإن أصله فيما زعموا أن قومًا أخذوا العلم عن الصُحف من غير أن لقوا فيه العلماء فكان يقع فيما يروونه التغيير فيقال عندها (قد صحفوا فيه) أي رووه

---

(١) السفاريني: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سالم ت ١١٨٨هـ/١٧٧٤م: غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت،ط٢، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢ م،صـ٣١٥

(٢) المناوي: محمد عبد الرؤوف ابن تاج العارفين ت ١٠٣١ هـ /١٦٢١م: التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت،ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، صـ٤٤٩

عن الصحف، ومصدره التصحيف ومفعوله مصحّف،فأما المُصحف فمأخوذ من قولهم (أصحف إصحافًا) وأصله أن الصحف جمعت فيه فقيل: قد أصحف، ولو مسمى التصحيف تغييرًا أو تبديلاً جاز[١] فالعرب تسمي ما يكتب فيه القرطاس أو الصحيفة أو السفر، ويجمع القرطاس على قراطيس، والصحيفة على صحائف، والسفر على أسفار أما الصحف فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في أخبار الله العلي العظيم الدالة على كمال حكمته وجليل قدرته، وصدق نبوءة محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة والتسليم: {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}[٢]، وفي سورة طه: {وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى}[٣] وفي سورة التكوير: {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ. وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ. وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ}[٤] ويغفر الله لابن الأحنف ت ١٩٢هـ/٨٠٨م حيث يقول:

صَحائِفُ عِندي لِلعِتاب طَوَيتُها ... سَتُنشَرُ يَومًا وَالعِتابُ يَطولُ
عِتابٌ لَعَمري لا بَنانٌ تَخُطُّهُ ... وَلَيسَ يُؤَدّيهِ إِلَيكِ رَسولُ[٥]

(١) الأصفهاني: أبو عبد الله حمزة بن الحسن ت ٣٦٠ هـ/٨٧٣م: التنبيه على حدوث التصحيف، تحقيق: محمد سعد أطلس، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م، صـ٢٦

(٢) الأعلي آيه (١٨)، (١٩)

(٣) آيه (١٣٣)

(٤) آيات من (١٠) –(١٤)

(٥) حسين بن محمد المهدي: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، وزارة الثقافة، اليمن ١٤٣١هـ/٢٠٠٩م،صـ١١٩

وعن أبي ذر الغفاري، قال: قال لي رسول الله ﷺ: " يا أبا ذر "أربعة – يعني من الرسل – سريانيون: أدم، وشيث ، ونوح، وأخنوخ، وهو أول من خط بالقلم، وأنزل الله تعالى على أخنوخ ثلاثين صحيفة "[1] وقد زعم بعضهم أن الله بعث إدريس إلى جميع أهل الأرض في زمانه، وجمع له علم الماضين، وأن الله ﷻ زاده مع ذلك ثلاثين صحيفة، وقال: فذلك قول الله ﷻ: " إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى " وقال: يعني بالصحف الأولى الصحف التي أنزلت على ابن آدم هبة الله وإدريس عليهما السلام، وقال بعضهم: ملك بيوراسب في عهد إدريس، وقد كان وقع إليه كلام من كلام آدم صلوات الله عليه، فاتخذه، في ذلك الزمان سحرًا، وكان بيوراسب يعمل به، وكان إذا أراد شيئًا من جميع مملكته أو أعجبته دابة أو امرأة نفخ بقصبة كانت له من ذهب، وكان يجيء إليه كل شيء يريده، فمن ثم تنفخ اليهود في الشبورات[2] وفي حديث أبي ذر: أيضًا «فما كانت صحف موسى؟ قال: كانت

(١) ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٢، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م، جـ٢،صـ٧٦

(٢) الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي ت ٣١٠هـ/٩٢٢م: تاريخ الطبري، دار التراث، بيروت،ط٢، ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧م،جـ١،صـ١٧١ والشبورات: الأبواق ومن ذلك قول الأصمعي للمفضل الضبي حين رفع صوته ومده وهو يناظره: لو نفخت في الشبور مانفعك، نشوان بن سعيد الحميرى اليمني ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم،تحقيق حسين عبدالله العمري، دار الفكر المعاصر،بيروت،ط١، ١٤٢٠ هـ /١٩٩٩ م، جـ٧،صـ٤٣٦١

عبرًا كلها» ، والعبر جمع عبرة وهي كالموعظة مما يتعظ به الإنسان ويعمل به ويعتبر ليستدل به على غيره[1]

وأصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة، ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب، وقد وقع فيه جماعة من الأجلاء من أئمة اللغة وأئمة الحديث، حتى قال الإمام أحمد بن حنبل: من يعرى من الخطأ والتصحيف؟! قال ابن دريد ت ٣٢١ هـ/٩٣٣ م: صحف الخليل بن أحمد ت ١٧٠هـ / ٧٨٦ م، فقال: يوم بغاث بالغين المعجمة، وإنما هو بالمهملة، أورده ابن الجوزي ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م، وهو شيء لا يمكن وقوعه من الخليل، صاحب العلم الغزير بأحوال العرب، وقد يكون من فعل النساخ، إن صح كلام ابن الجوزي، فنسب التصحيف إلى الخليل، وسببه الخط، أما لتشابه الحروف، وإما بسبب عدم وجود الحركات، فمن النوع الأول حديث ينسب إلى الرسول هو: "تسمعون جرش طير الجنة"، وكان الأصمعي ت ٢١٦ هـ / ٨٣١ م،قد سمعه في مجلس شعبة ١٦٠هـ/ ٧٧٦ م، فقال: "جرس" بالسين لا بالشين، ومن هذا القبيل: ما وقع من تصحيف في شعر للحطيئة ت نحو ٤٥ هـ / ٦٦٥ م،هو قوله:

وغررتني وزعمت أنك لابن بالصيف تامر

أي كثير اللبن والتمر، وقد قرأ:

وغررتني وزعمت أنك لا تني بالضيف تامر

(١) صالح بن عبد الله بن حميد: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط٤،د.ت،جـ١، صـ٣٧٩

أي لا تتوانى عن ضيفك بتعجيل القرى إليه[١]

ومثل ذلك تصحيف الأصمعي في بيت لأوس بن حجر ت٢ ق هـ/٦٢.م:

يا عام لو صادفت أرماحنا لكان مثوى خدك الأخرما

فقرأه "الأحزما"، وإنما هو "الأخرما" بالراء، وهو طرف أسفل الكتف[٢] ومن ذلك ما وقع بين الأصمعي والمفضل ت ١٦٨هـ/٧٨٤ م،عند عيسى بن جعفر ت نحو ١٨٥ هـ/ ٨٠.م، فقد ناظر المفضل الأصمعي، بأن أنشد بيت أوس بن حجر:

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبًا جذعا

فقال له الأصمعي: "هذا تصحيف، لا يوصف التولب[٣] بالإجذاع، وإنما هو جدعا، الجدع: السيئ الغذاء، قال: فجعل المفضل يشغب، فقلت له: تكلم كلام النمل وأصب، لو نفخت في شبور يهودي ما نفعك شيئًا" وقرئ يومًا على الأصمعي في شعر أبي ذؤيب الهذلي: فقال أعرابي حضر المجلس للقارئ ضل ضلالك أيها القارئ! إنما هي ذات الدبر، وهي ثنية عندنا، فأخذ

---

(١) جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، جـ١٧، صـ٢٧٣

(٢)() ابن منظور: محمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى ت ٧١١هـ/١٣١١م: لسان العرب، دار صادر،بيروت،ط٣، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م،جـ٨،صـ٤٢، صـ٢٦٠

(٣) التولب: ولد الأتان والبقرة، نشوان بن سعيد الحميرى: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، جـ٢،صـ٧٦٦

الأصمعي بذلك فيما بعد[1] وقد أخذ المحدثين عن الصحف أنهم يغمزون بذلك، وإن كان ما في الصحيفة صحيحًا، فيقولون مثلًا: إن فلانًا ثقة وبعض روايته صحيفة ، وقد جرى أهل الأدب في أمر الإسناد على ذلك أيضًا، وأصل التصحيف رواية الخطأ عن قراءة الصحف باشتباه الحروف؛ فقد كانوا يكتبون في القرن الأول الهجري بدون نقط ولا شكل، يفعلون ذلك في المصاحف وغيرها؛ فكان الذي يأخذ القرآن من المصحف ولا يتلقاه من أفواه القراء تشتبه عليه الحروف فيصحف، وغبر الناس على ذلك إلى أيام عبد الملك بن مروان ت ٨٦هـ/٧٠٥م، ففزع الحجاج ت ٩٥هـ/٧١٤م إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات؟ فيقال إن نصر بن عاصم ت ٨٩هـ/ ٧٠٨م،قام بذلك؛ فوضع النقط، فغبر الناس بذلك زمانًا لا يكتبون إلا منقوطًا، وكان أبو الأسود ت ٦٩ هـ/٦٨٨ م، قد وضع النقط قبل نقط نصر لضبط الحروف -شكلها- فاشتبه الأمر واستمر يقع التصحيف، فأحدثوا الإعجام -أي: الشكل بالحركات على ما أرادوه في أول التعبير بذلك- فكانوا يتبعون النقط بالإعجام، ولكن ذلك لم يكن مستقصى في كل ما يكتب ولا كان كل من يقرأ يستقصي ضبط الكلمة ونقطها، فلم يزل يعتري التصحيف؛ فالتمسوا حيلة فلم يقدروا على غير الأخذ من أفواه الرجال، وكان ذلك كله قبل أن تستبحر فيهم الرواية؛ فلهذا وأشباهه قالوا: لا تأخذوا القرآن من مصحفي، ولا العلم من صحفي! ولما استجرت لهم أطراف الرواية وكثر التبدين، كان أشد ما يهجى به الرواية إسناده إلى الصحف؛ لأن ذلك غميزة في ضبطه

---

(١) الزجاجي:عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م: مجالس العلماء: تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، صـ١٤

تحصيله، ولأن الرواة كانوا يتفاوتون بمقدار ما يصحفون أو يصححون؛ ولا يكون التصحيح إلا بلقاء العلماء والرواة والمتقدمين في صناعتهم المتقنين لما حفظوه والإسناد إليهم[١] ومن هنا يأت التوافق بين هذه الأفكار والمبادئ القديمة، وعلاقتها بما يجري في عصرنا الحالي من نفس الحذر في التعامل مع الصحيفة.

فمن كان يكتفي بالأخذ من الكتاب وحده، دون أن يعرضه على العلماء، ودون أن يتلقى علمه في مجالسهم، فقد كان عرضة للتصحيف والتحريف، وبذلك لم يعدوا علمه علمًا، وسموه صحفيًا لا عالمًا، قال ابن سلام ت ٢٣٢هـ/٨٤٥م: في معرض حديثه عن الشعر القديم "وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأحد -إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه- أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي"، وشبيه بهذا قول ثعلب ت ٢٩١هـ/٩١٤م عن كتاب العين للخليل "وقد حشا الكتاب أيضا قوم علماء لا أنهم لم يؤخذ منهم رواية، وإنما وجد بنقل الوراقين، فاختل الكتاب لهذه الجهة" ومن هنا ضعفوا الأخذ من المدونات في التفسير والحديث؛ فكان بعضهم يتقي تفسير مجاهد "توفي سنة ١٠٣ هـ،وعمره ٨٣ سنة" لأنهم "كانوا يرون أن مجاهدًا يحدث عن صحيفة جابر"[٢] وقال يحيى بن سعيد القطان في أحاديث

---

(١) الرافعي: مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر ت: ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م: تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي،بيروت، جـ١، صـ١٩٣

(٢) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط٧، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨ م،صـ١٨٣

سمرة التي يرويها الحسن عنه: سمعنا أنها من كتاب[١] وقال سفيان الثوري عن حديث عبد الأعلى بن عامر الثعلبي: كنا نرى أنه من كتاب، وكان ضعيفًا في الحديث، وقال يحيى بن معين: إذا حدث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، "يعني عبد الله بن عمرو بن العاص" فهو كتاب، ومن هنا جاء ضعفه[٢] ومن أجل ذلك كان مما يهجى به العالم الاكتفاء بالأخذ عن الصحف وحدها، وإهمال الإسناد إلى الشيوخ، فقال بعضهم يهجو أبا حاتم السجستاني ت٢٤٨هـ/٨٦٢م:

إذا أسند القوم أخبارهم فإسناده الصحف والهاجس[٣]

ومن أجل ذلك أيضًا كان مما يمدح به العالم أنه لا يكتفي بالأخذ عن الصحف وحدها فلا يقع في التصحيف، ومن ذلك ما مدح به أبو نواس ت ١٩٨هـ/٨١٤م، خلفًا الأحمرت ١٨٠هـ/٧٩٦م:

لا يهم الحاء في القراءة بال خاء ولا لامها مع الألف
ولا يعمي معنى الكلام ولا يكون إنشاده عن الصحف[٤]

---

(١) الفسوي:يعقوب بن سفيان بن جوان الفسوي ت ٢٧٧هـ/٨٩٠م: المعرفة والتاريخ،تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة،بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م جـ٣، صـ١١

(٢) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي،صـ١٨٣

(٣) الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد ت ٥٠٢هـ/١١٠٨م: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء،دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م، جـ١،صـ١٣٨

(٤) الجاحظ:عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م:الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣م، جـ٣، صـ ٢٣٩

وقال فيه أيضًا:

فكلما نشاء منه نغترف راوية لا يجتني من الصحف[1]

١- الصحيفة قبل الإسلام:

ورد في وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث عليه السلام ومعنى شيث: هبة الله، وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل، في حديث أبي ذر في حديثه عن رسول الله ﷺ: " إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسين صحيفة "،قال محمد بن إسحاق: ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك[2]

وورد ذكر الصحف أيضًا عن عكرمة أنه قال: رأيت في بعض صحف شيث أن آدم عليه السلام قال: يا رب أرني ملك الموت حتى أنظر إليه فأوحى الله تعالى إليه: إن له صفات لا تقدر على النظر إليها و سأنزله عليك في الصورة التي يأتي فيها الأنبياء و المصطفين فأنزل الله عليه جبريل و ميكائيل و أتاه ملك الموت في صورة كبش أملح قد نشر من أجنحته أربعة آلاف جناح منها جناح جاوز السموات و الأرض و جناح جاوز الأرضين و جناح جاوز أقصى المشرق و جناح جاوز أقصى المغرب و إذا بين يديه الأرض بما اشتملت عليه من الجبال و السهول و الغياض و الجن و الإنس و الدواب و ما أحاط بها من البحار و ما علاها من الأجواء في ثغرة نحرة كالخردلة في فلاة من الأرض، و إذا عيون لا يفتحها إلا في مواضع فتحها و أجنحة لا ينشرها إلا

---

(١) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي،صـ١٨٣

(٢) بن كثير:أبو الفداء إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤هـ /١٣٧٢م: قصص الأنبياء، دار الكتب الحديثة،القاهرة،ط١، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م، جـ١،صـ٦٧

في مواضع نشرها، و أجنحة للبشرى ينشرها للمصطفين و أجنحة للكفار فيها سفافيد و كلاليب و مقاريض فصعق آدم صعقة لبث فيها إلى مثل تلك الساعة من اليوم السابع ثم أفاق[١]

وفي أخبار سيدنا إدريس عليه السلام واسمه أخنوخ، أنه سمي بذلك لكثرة دراسته الكتب؛ وهو أول من بعث من بني آدم؛ وهو أول من خط بالقلم بعد شيث ، وأول من كتب في الصحيفة؛ وكان مشتغلًا بالعبادة ومجالسة الصالحين حتى بلغ فانفرد للعبادة ، فجعله الله تعالى نبيناً ، وأنزل عيه ثلاثين صحيفة ، وورثه صحف شيث وتابوت آدم [٢]

إلي أن وصلنا إلي عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام والذي كان خروجه من العراق وهو ابن سبع وثلاثين سنة وتزوج سارة بوحي أتاه، وخرج معه ثلاث صحف بالعبرانية وكانت لغته سريانية، وكان في الصحف أمثال وتسبيح وتهليل وتحميد، وأمر بالمسير فعبر الفرات وسار إلى مصر[٣] وعن زهير بن عباد الرواسي قال قال داود بن هلال مكتوب في صحف إبراهيم عليه السلام، يا دنيا

---

(١) القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق: الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٥م، صـ٢٥٥

(٢) النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية،دار الكتب العلمية،بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م،جـ ١٣، صـ٣٧

(٣) المسعودي: أبو الحسن على بن الحسين بن على ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م: أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، صـ ١٠٣

ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت لهم وتزينت لهم إني قد قذفت في قلوبهم بغضك؛ والصدود عنك، وما خلقت خلقًا أهون عليَّ منك كل شأنك صغير وإلى الفناء تصيرين، قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومي لأحد، ولا يدوم لك أحد؛ وإن بخل بك صاحبك وشح عليك طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة، طوبى لهم ما لهم عندي من الجزاء إذا وفدوا إلي من قبورهم النور يسعى أمامهم والملائكة حافين بهم حتى أبلغهم مما يرجون من رحمتي(١)

وفي عهد سيدنا سليمان حينما كان عمره بضع وعشرون سنة نزل جبريل على داود بصحيفة ، وأمره عن الله تعالى أن يجمع أولاده ويقرأ عليهم ما في الصحيفة من المسائل ، فمن أجاب عما فيها فهو الخليفة من بعده ، فأحضر داود أولاده ، وكان سليمان أصغرهم سنًا ، وقرأ عليهم ما في الصحيفة ، فأقروا بالعجز عن معرفتها ، وذلك بحضور مشيخة بني إسرائيل ، فقال داود لسليمان عليهما السلام : أجب عن هذه المسائل. فقال: أرجو أن يهديني الله تعالى إلى جوابها فقال: يا سليمان ، ما الشيء؟ قال: المؤمن، قال: فما بعض الشيء؟ قال: الفاجر، قال: فما لا شيء؟ قال: الكافر، قال: فما كل شيء؟ قال: الماء، قال: فما أكبر شيء؟ قال: الشرك، قال: فما أقل شيء؟ قال: اليقين، قال: فما أمرّ شيء؟ قال: الفقر بعد الغنى، قال: فما أحلى شيء؟ قال: المال والولد. قال: فما أقبح شيء؟ قال: الكفر بعد الإيمان. قال: فما أحسن شيء؟ قال: الروح في الجسد. قال: فما أوحش شيء؟ قال: الجسد بلا روح، قال: فما أقرب شيء؟ قال: الآخرة من الدنيا، قال فما أبعد شيء؟ قال الدنيا من الآخرة، قال: فما أشر شيء؟ قال: المرأة السوء، قال: فما خير شيء؟ قال:

---

(١) الدينوري:أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد القاضي المالكي ت ٣٣٣هـ/٩٤٤م: المجالسة وجواهر العلم، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، ص٢٥٥

المرأة الصالحة، قال: وكان داود يصدقه عقب كل مسئلة ، ثم التفت إلى بني إسرائيل فقال: ما أنكرتم من قول ابني؟ قالوا: ما أخطأ في شيء متعك الله به ، وبارك لنا ولك فيه، قال: أترضون أن يكون خليفتي عليكم؟ قالوا نعم(١)

وفي التاريخ المصري القديم سجلت الآداب المصرية على صفحات البردي واللخاف، بخطوطها التي عرفناها: الهيروغليفي والهيراطقي منذ أواخر الألف الرابع ق. م، والديموطقي منذ القرن السابع ق. م، ثم القبطي منذ القرن الثاني للمسيح ﷺ، وظلت لغتها على مدى آلاف طويلة من السنين واحدة متصلة في أساسها، ولكن مع تمايز خفيف وتطور يسير في نحوها وأساليبها وهجاء كلماتها بين كل عصر وآخر من عصور تاريخها الطويل(٢)

وكانت صحائف البردي من أهم الوثائق التي حفظت للعالم أجمع أهم أسرار هذه الحضارة العريقة.

وفي تاريخ العرب القديم ما روى عن محمد بن إسحاق عن وهب قال: كان رجل من بقايا أهل دين عيسى يقال له: فيمون خرج من الشام مع سيارة من العرب فأخذوه وباعوه من أهل نجران؛ وكان أهل نجران يعبدون نخلة لهم! فقال لهم فيمون: إن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع فلم تعبدون ولو دعوت ربي الذي أعبده لأهلكها؛قالوا فافعل فدعا فيمون ربه فجاءت ريح فجعفتها(٣)

---

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب،جـ١٤، صـ٦٠

(٢) عبدالعزيز صالح:الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق، مكتبة دار الزمان،د.ت، صـ٣٤٠

(٣) (جعف) الجيم والعين والفاء أصل واحد، وهو قلع الشيء وصرعه، يقال جعفت الرجل إذا صرعته بعد قلعك إياه من الأرض، والانجعاف: الانقلاع تقول انجعفت الشجرة، القزويني الرازي: أحمد بن فارس بن زكرياء ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م :معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون،دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م، جـ١، صـ٤٦٠

عن أصلها ! فاتبعه أهل نجران وآمنوا بعيسى وبلغ الخبر ذا نواس فسار إليهم بجنوده فحاصرهم زمانًا ثم آمنهم؛ فأعطاهم عهدًا لا يغدر بهم إن هم نزلوا فلمّا نزلوا خد بهم الأخدود، وأوقد فيه النار؛ ثم جعل يجاء بفوج بعد فوج ويخيرون بين اليهودية والنار فمن أبى عليه قذفه في النار، قالوا حتى أتي بإمرأة معها صبي لها ترضعه فلما نظرت إلى النار ذعرت لذلك وكادت تعرض عن دينها فقال لها الصبي مه يا أماه امضي على دينك فإنه لا نار بعدها؛ فرمى بالمرأة وابنها في النار قال بعضهم فجعل الله النار عليهما بردًا وسلامًا فكف ذو نواس عن ذلك ومضى رجل من أهل اليمن يقال له ذو ثعلبان إلى ملك الحبشة ومعه صحف محرقة من الإنجيل يستصرخه ! فبعث بجيش إلى اليمن وانهزم ذو نواس من بين أيديهم فخاض في البحر بفرس حتّى غرق وفيه يقول عمرو بن معديكرب:

أتوعـــدني كأنـــك ذو رعـــين بـــأنعم عيشـــة أو ذو نـــواس
وكـاين كـان قبلـك مـن نعـيم وملـك ثابـت في النـاس راســي
قـديم عهـده مـن عهـد عـاد عظـيم قـاهر الجـبروت قاســي
فأمســى أهلـه بـادوا وأمســى يحـــول في أنـــاس مـــن أنـــاس

وانقضى ملك اليمن وغلبت الحبشة عليها[1]

كانت هذه الصحف المحرقة من الإنجيل كفيلة بأن تتحرك من أجلها الجيوش، ويتحارب الملوك، هكذا كانت الصحف قبل الإسلام،لها منزلة مقدسة لأنها إما منزلة من السماء أوبها نص معاهدة،أوتحمل توثيقًا لحدث هام،وحتي بعد الإسلام ورد من النصوص مايوضح بعض من هذه القدسية،ومما ورد في

(١) ابن المطهر بن طاهر المقدسي ت نحو ٣٥٥هـ/٩٦٥م: البـدء والتـاريخ، مكتبـة الثقافة الدينية، بور سعيد،د.ت، جـ٣، صـ١٨٣

ذلك عن صحائف الأعمال سئل سفيان الثوري: هل يؤاخذ العبد بالنية؟ قال: نعم إذا كانت عزمًا أخذ بها ، وفي الخبر: أنّ العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختمة؛ فتلقى بين يدي اللّه تعالى فيقول: ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بذلك وجهي ، ثم ينادي الملائكة: اكتبوا له كذا واكتبوا له كذا ، فيقولون: ربنا إنه لم يعمل شيئًا من ذلك ، فيقال إنه نواه[1]

(١) أبو طالب المكي ت ٣٨٦ هـ /٩٩٦م: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٦ هـ /٢٠٠٥ م، جـ٢، صـ ٢٧٠

المبحث الأول

الصحيفة في صدر في الإسلام

قد كانت الأمم في ذلك متفاوتة فكان أهل الصين يكتبون في ورق يصنعونه من الحشيش والكلأ، وعنهم أخذ الناس صنعة الورق، وأهل الهند يكتبون في خرق الحرير الأبيض، والفرس يكتبون في الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش؛ وكذلك كانوا يكتبون في اللخاف بالخاء المعجمة وهي حجارة بيض رقاق، وفي النحاس والحديد ونحوهما، وفي عسب النخل بالسين المهملة وهي الجريد الذي لا خوص عليه واحدها عسيب، وفي عظم أكتاف الإبل والغنم، وعلى هذا الأسلوب كانت العرب لقربهم منهم، واستمر ذلك أن بعث النبي ﷺ، ونزل القرآن والعرب على ذلك؛ فكانوا يكتبون القرآن حين ينزل ويقرأه عليهم النبي في اللخاف والعسب، فعن زيد بن ثابت ﷺ أنه قال: عند جمعه القرآن فجعلت أتتبع القرآن من العسب واللخاف، وفي حديث الزهري قبض رسول الله والقرآن في العسب وربما كتب النبي بعض مكاتباته في الأدم،وأجمع رأي الصحابة رضي الله عنهم على كتابة القرآن في الرق لطول بقائه أو لأنه الموجود عندهم حينئذ،وبقي الناس على ذلك إلى أن ولي الرشيد الخلافة، وقد كثر الورق وفشا عمله بين الناس أمر ألا يكتب الناس إلا في الكاغد لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة؛ فتقبل التزوير بخلاف الورق فإنه متى محي منه فسد، وإن كشط ظهر كشطه،وانتشرت

الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار وتعاطاها من قرب وبعد واستمر الناس على ذلك(١)

لم يكن العرب في الجاهلية عندهم معرفة بالكتابة بالقدر الكافي،لكن كانوا يجيدون صنع مايكتبون عليه رغم قلته، لهذا كانت الصحف عندهم ذات أهمية خاصة؛ فتكتب فيها أوامر الملوك والإتفاقات، والعهود والمواثيق التي لا تقبل النقض وبالتالي كانت الصحف عندهم هي بمثابة الوسيلة التي تحفظ أهم أحداث حياتهم، فنالت بذلك عندهم مكانة خاصة وسيتم عرض نماذج لذلك فيما سيأتي:

صحيفة المتلمس:

كانت يضرب بها المثل في الإسلام، هو جرير بن عبد المسيح بن عبد الله؛ الشاعر من بني دوقن من ضبيعة بن ربيعة من نزار، ويسمى: المتلمس، لقوله:

فهـذا أوانُ العِـرض جُـنّ ذُبابـهُ زَنَـــابِيرُه والأزرقُ المـــتلمّسُ

وكان المتلمس ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة – كان فيما بين "٥٥٤" "٥٦٩م"– هو وطرفة بن العبد، الشاعر، من قيس بن ثعلبة بن عكابة من بكر بن وائل، فهجوا عمرًا، فمن هجائهما قول طرفة:

إن شـرار الملـوك قـد علمـوا طـرًا وأدنـاهم مـن الـدنس

عمـرو وقـابوس وابـن أمهمـا مـن يـأتهم للخنـا بمحتـبس

(١) القلقشندي: شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمـد ت ٨٢١ هـ /١٤١٨م: صـبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسـف علـي طويـل، دار الفكـر، دمشـق، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧ م،جـ٢، صـ٥١٥

يـأتي الـذي لا تخـاف سـبتـه عمـرو وقـابوس قينتـا عـرس
يصبح عمرو على الأمور وقد خضـخض مـا للرجـال كـالفرس

فلما علم عمرو بهجائهما إياه: كتب لهما كتابين إلى عامله بالبحرين يأمره أن يقتلهما أقبح قتله، وقال لهما: قد كتبت بجائزتكما إليه، فانصرفا، حتى إذا صارا في النجف[1] قال المتلمس لطرفة: يا طرفة أنت حدث غر، وكلنا قد هجا الملك ولا آمن مكره بنا في كتابيه، فهل لك أن تقرأ كتابيه؟ فقال طرفة: همة الملك أرفع من هذا، ولو هم بذلك لكان على بابه أعظم لهيبته، وغدا المتلمس إلى غلام من أهل الحيرة ليقرئه الصحيفة، ومضى طرفة ولم يلو عليه، فلما قص الغلام الصحيفة إذا فيها: أما بعد، فإذا أتاك الملتمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيًا فقال الغلام: ثكلت المتلمس أمه، وهو لا يعرفه، فأخذ المتلمس الصحيفة؛ وخرج لأن يحدث طرفة ويرده؛ فلم يلحقه فألقى المتلمس صحيفته في نهر الحيرة وقال:

وَأَلْقيتُها بالثّني مِنَ جَنْب كافرٍ كـذلك أُفْتُـوا كـل قِـطٍّ مُضَـلَّلِ
رَضِـيتُ لهـا بالمـاء لّمـا رَأَيتـها يَجُـول بهـا التّيـارُ في كُـلِّ جَـدْولِ

والثني: ما انثنى من الوادي والنهر، والكافر هاهنا: النهر العظيم، وأقنو: أجزى، والقط: الصحيفة والصك، والبيت الأول مجزوم،وهرب المتلمس نحو الشام، وأتى طرفة إلى عامل البحرين، فقتله، فقال المتلمس:

---

(١) بالعراق بظهر الكوفة، وهو البساتين والمتنزهات التي يشـرف الخورنـق عليهـا، الحميري: محمد بن عبد المنعم ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م: الروض المعطـار فـي خبـر الأقطـار، تحقيـق إحسـان عبـاس، مؤسسـة ناصـر للثقافـة،بيـروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٠م،جـ١، صـ٥٧٥

مَنْ مُبْلِغُ الشُّعَرَاءِ عَنْ أَخَوَيْهِم نَبَأً فَتَصْدُقَهُمْ بِذَاكَ الأَنْفُسُ
أَوْدَى الَّذِي عَلِقَ الصَّحِيفَةَ مِنْهُمَا وَنَجَا حِذَارَ حِبَائِهِ المُتَلَمِّسُ
أُلْقَى صَحِيفَتُهُ وَنَجَّتْ كورُهُ وَجُنَاءُ مُحمرة المَنَاسِمِ عِرْمِسُ

فضربت العرب المثل بصحيفة المتلمس، وقد ذكرها الفرزدق ت ١١٤ هـ / ٧٣٢م، في شعره إلى مروان بن الحكم ت ٦٥هـ/٦٨٥م ، وذلك أن الفرزدق مدح سعيد بن العاص ت ٥٩هـ/٦٧٨م، بشعر يقول فيه:

ترى الغرَّ الجحاجح من قريشٍ إذا ما الأمر في الحدثان غالا
قيَامًا ينظرُونَ إلَى سعيدٍ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ بِهِ هلالا

فقال مروان: ألا جعلتهم جلوسًا؟ فقال: لا والله إلا قيامًا، وأنت من بينهم صافن، فحقد ذلك عليه مروان، وكتب له كتابًا مختومًا إلى بعض عماله يأمره فيه بجلد الفرزدق، فأبى الفرزدق أن يغدو إلى العامل، فكتب إليه مروان:

قُل للفَرَزدق والسَّفَاهة كاسمها إن كُنْت تَارِكَ ما نَهيتُك فاجْلِس

أي: الحق بنجد، يقال: جلس: إذا أتى نجدًا، فرد عليه الفرزدق:

يا مَرْوُ إنّ مَطيتي مَحْبُوسةٌ تَرجو الخَباءَ وربُّها لم يَيأس
وحَبْوتني بصحيفة مختومة يُخْشَى عليَّ بها حَبَاءُ النقرس
أَلقِ الصحيفة يا فرزدقُ لا تَكن نَكداءَ مِثْلَ صَحيفة المُتلمّس[1]

ومع ذلك ليس هناك وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة؛ فقد

(١) نشوان بن سعيد الحميرى اليمني ت ٥٧٣ هـ/١١٧٧م: الحور العين، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨ م، صـ١٢٤

عرفوها، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية، ومن ثم استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية، ولا ينقض ذلك ما جاء في السيرة النبوية من أن سويد بن الصامت، قدم مكة حاجًا أو معتمرًا؛ فتصدى له رسول الله، ﷺ، حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: "وما الذي معك؟" قال: مجلة لقمان، فقال له رسول الله، ﷺ: "اعرضها علي"، فعرضها عليه، فقال له: "إن هذا لكلام حسن والذي معي أفضل من هذا: قرآن أنزله الله علي هو هدى ونور؛ فتلا عليه رسول الله القرآن، ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن.. ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج، فإن كان رجال من قومه ليقولون إنا لنراه قتل وهو مسلم، وكان قتله قبل بعاث[1]

وهذا الخبر إنما يفيد أنه كان عندهم صحيفة بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان، ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على أنهم استخدموا الكتابة في التعبير عن وجدانهم نثرًا وشعرًا؛ فقد كانت محدودة الانتشار بينهم، ومن التعسف أن نزعم ذلك لمجرد الظن؛ بينما تنقصنا أو تعوزنا النصوص الحسية، وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي؛ فمن المحقق أنه وجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان، ومن المؤكد أنهم كانوا يشغفون بالقصص شغفًا شديدًا، وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة في الصحراء؛ فكانوا حين

---

(١) ابن كثير: أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٢م: البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، جـ٣، صـ١٨٠

يرخي الليل سدوله يجتمعون للسمر، وما يبدأ أحدهم في مضرب من مضارب خيامهم بقوله: كان وكان، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه، وقد يشترك بعضهم معه في الحديث، وشباب الحي وشيوخه ونساؤه وفتياته، وراء الأخبية كل هؤلاء يتابعون الحديث في شوق ولهفة، ومن غير شك كان يفيض القصاص على قصصه من خياله وفنه، حتى يبهر سامعيه، وحتى يملك عليهم قلوبهم فيحولهم من الشفقة إلى محبة الانتقام ومن الضحك إلى الجد، وعيونهم تلمع في وجوههم السمر وقلوبهم تخفق من آن إلى آن، وليس بين أيدينا شيء من أصول هذا القصص الذي كان يدور بينهم؛ غير أن اللغويين والرواة في العصر العباسي دونوا ما انتهى إليه منه، وطبيعي أن تتغير وتتحرف أصوله في أثناء هذه الرحلة الطويلة التي قطعتها من العصر الجاهلي إلى القرن الثاني الهجري، وإن كان من الحق أنها لا تزال تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم ولا تزال تنبض بروحه وحيويته(١)

صحيفة إسلام عمر بن الخطاب:

قال ابن إسحاق:كان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول ﷺ إلى الحبشة،قال وكان إسلامه فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد بن زيد ت٥١ هـ /٦٧١م وهم مستخفون بإسلامهم من عمر وكان نعيم بن عبد الله النحام من بني عدي، قد أسلم وكان يستخفي بإسلامه، فرقًا من قومه وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن فخرج عمر متوشحًا سيفه يريد رسول الله ﷺ، ورهطًا من أصحابه قد ذكروا له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا قريبًا

---

(١) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف،مصر،ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، جـ١، صـ٣٩٩

من أربعين بين رجال ونساء ومع رسول الله ﷺ، عمه حمزة وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين،فلقيه نعيم فقال أين تريد يا عمر؟ قال أريد محمدًا هذا الصابيء الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها، وأعاب دينها،وسب آلهتها؛فأقتله فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم قال: أي أهل بيتي قال ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة؛ فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه فعليك بهما، فرجع عمر عائدًا إلى أخته وختنه وعندهما خباب معه صحيفة فيها طه يقرؤهما إياها؛ فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها وقد سمع عمر قراءة خباب فلما دخل قال ما هذه الهينمة التي سمعت قالا ما سمعت شيئًا! قال بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمد على دينه، وبطش بختنه سعيد؛ فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها فضربها فشجها ! فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه نعم أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك،ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم وارعوى وقال لها أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفًا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد وكان عمر كاتبًا؛ فلما قال ذلك قالت له أخته إنا نخشاك عليها قال لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها إليها إذا قرأها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له:يا أخي إنك نجس على شركك و أنه لا يمسها إلا الطاهر؛ فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها طه فقرأها فلما قرأ منها صدرًا قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه،فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو

بعمر بن الخطاب فالله الله يا عمر، فقال عند ذلك فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم؛ فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب فلما سمعوا صوته قام رجل منهم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحًا السيف فرجع وهو فزع فقال يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب فأذن له فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه،فقال الرسول الله ﷺ ائذن له فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة شديدة، وقال ما جاء بك يا ابن الخطاب فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة، فقال عمر يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عنده، قال فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم، فتفرقوا من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة،وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ وينتصفون بهما من عدوهم(١)

وهذا مما يدل علي أنه كانت هناك صحف كتبت بها بعض آيات القرآن الكريم في العهد المكي وكانت من القدسية بمكان أن سيدنا عمر بن الخطاب اغتسل قبل أن يمسها بيده.

---

(١) أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي ت ٦٣٤هـ/١٢٣٧م: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، جـ١،صـ١٩١

صحيفة المقاطعة:

لما رأت قريش أن الإسلام يفشو ويزيد، وأن المسلمين قووا بإسلام حمزة وعمر – رضي الله عنهما – وعاد إليهم عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة من النجاشي بما يكرهون من أمر المسلمين، وأمنهم عنده، ائتمروا في أن يكتبوا بينهم كتابًا، يتعاقدون فيه على: أن لا ينكحوا بني هاشم وبني المطلب، ولا ينكحوا منهم، ولا يبيعوهم، ولا يبتاعوا منهم، فكتبوا بذلك صحيفة، وتعاهدوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا لذلك الأمر على أنفسهم،وانحازت بنو هاشم كافرهم ومسلمهم إلى أبي طالب، ودخلوا معه في شعبه، وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش مضارًا لهم، وكانت امرأته أم جميل بنت حرب – وهي أخت أبي سفيان – على رأيه في عداوة رسول الله ﷺ وهي التي سماها الله تعالى: **[حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ]**(١) لأنها كانت تحمل الشوك، فتضعه في طريق رسول الله ﷺ وأقامت بنو هاشم في الشعب، ومعهم رسول الله ﷺ وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثًا، هذا ورسول الله ﷺ يدعو الناس سرًا وجهرًا، والوحي متتابع إليه، وقام في نقض الصحيفة نَفَر من قريش، فاجتمعوا بمكان، وتعاهدوا على القيام في نقض الصحيفة، ووقع بين القوم خلاف، فقام مُطْعِم بنُ عدي إلى الصحيفة ليشقَّها، فوجد الأرضَةَ قد أكلتها، إلا ما كان من: (باسمك اللهم)، كانت قريش تستفتح بهذا كتابها، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة من بني عبد الدار، فشلّت يده، وكان الله تعالى أرسل الأَرَضَةَ، فأكلت ما فيها من ظلمٍ وقطعِ رحم، وتركتْ ما فيها من أسماء الله تعالى، فجاء جبريل إلى النبي

(١) المسد: آيه (٤)

ﷺ، وأعلمه بذلك، فتكلم رسولُ الله ﷺ بذلك، فاجتمع الملأ من قريش، وأحضروا الصحيفة، فوجدوا الأمر كما قاله رسول الله ﷺ، فنكسوا رؤوسهم، فاتفق جماعة من قريش، ونقضوا ما تعاهدوا عليه في الصحيفة؛ من قطيعة بني عبد المطلب(١)

فقد كانت الصحيفة محل اعتبار عند الكافر قبل المسلم،وما تعليقها بالكعبة إلا إثباتًا لذلك، ولولا أن الأرضة أكلتها ماكان يعلم عاقبة ذلك إلا الله.

صحيفة المدينة:

كتبت وثيقة هذه الموادعة في المدينة المنورة أول قدوم النبي ﷺ إليها، وقبل معركة بدر الكبرى، وهي تستهدف تنظيم العلاقة بين الأمة الإسلامية وبين يهود المدينة، وهي تتألف من أربعة وعشرين بندًا، ويدل أولها على التزام اليهود بالمساهمة في نفقات الحرب الدفاعية عن المدينة: وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وقد ركزت الوثيقة في عشرة بنود من صدرها على تنظيم العلاقة بالمتهودين من قبيلتي الأوس والخزرج، مع التركيز على نسبتهم إلى عشائرهم العربية حيث أقرت تحالفهم مع المؤمنين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم نفسه وأثم، ولقد منعت الوثيقة يهود المدينة من الخروج منها إلا بعد الحصول على إذن من الرسول ﷺ: وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وذلك حرمهم من القيام بأي نشاط عسكري خارج المدينة قد

---

(١) مجير الدين العليمي: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي الحنبلي ت ٩٢٨ هـ/ ١٥٢١م: التاريخ المعتبر في أنباء من غبر «وهو كتاب جامع لتاريخ الأنبياء وتاريخ الإسلام وتراجم أئمته العظام إلى مبتدأ القرن العاشر الهجري»،دار النوادر، سوريا، ط١، ١٤٣١ هـ/ ٢٠١١ م، جـ١، صـ٩٤

يؤثر على أمن المدينة وعلاقاتها الاقتصادية، وفي الوقت الذي أكدت الوثيقة على المسئولية الشخصية للجرائم، فإنها ضمنت النصر للمظلوم،وأكدت على أن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم،غير أن ذلك لا يعني إعفاء اليهود من أعباء المساهمة في نفقات الدفاع عن المدينة وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وقد اعتبرت الوثيقة منطقة المدينة حرما آمناً، وأن يثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة،وتعرض بعض بنود الوثيقة إلى حقوق الجار، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأكدت على أنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها،اعترف اليهود بموجب بنود هذه الاتفاقية بوجود سلطة قضائية عليا متمثلة في الرسول ﷺ يرجع إليها سائر المواطنين في المدينة بما فيهم اليهود في حالات الأحداث، أو حصول الشجار والاختلاف بينهم وبين المسلمين، وأن ما كان بين أهل الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في الصحيفة وأبره،وقد منعت الوثيقة اليهود من إجارة قريش أو نصرها، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وكان الهدف من ذلك هو ضمان حرية المسلمين في التعرض لتجارة قريش التي كانت تمر غربي المدينة في طريقها من الشام وإليها، ويمكن اعتبار هذا البند ضمانة لمنع احتمال حصول خلاف حول ذلك مع اليهود في المدينة،وقد امتدت المعاهدة لتشمل الطرفين إذ اشترطت المعاهدة على كل من الطرفين مصالحة حلفاء الطرف الآخر، باستثناء من حارب في الدين، وذلك لأن المسلمين كانوا في حالة حرب دائمة معهم، ومن الواضح أن المقصود من ذلك هو التأكيد على استثناء قريش من المصالحة،وفي الختام تضمنت الوثيقة مبدأ عامًا في تحمل

المسئولية الكاملة عن الظلم والجريمة لمرتكبيها بغض النظر عن بنود هذه الاتفاقية، وإعلانًا عامًا بالأمن والسلام لمن خرج من المدينة ولمن بقي فيها باستثناء المجرمين،وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله(١)

كيف أن هذه الصحيفة أصبحت ملزمة للجميع، وأصبحت نصوصها تمثل سلطة قضائية عليا،احترمتها كل الأديان السماوية وغير السماوية، فهي شملت المسلمين واليهود والمشركين من الأوس والخزرج،مما يدل علي أن احترام مافي الصحيفة له قدسية خاصة لا تتعلق بأي دين.

صحف اليهود:

عن عبد الله بن ثابت خادم النبي ﷺ قال جاء عمر ﷺ بصحيفة فقال يا رسول الله بعث إلي بهذه الصحيفة رجل من بني قريظة فيها جوامع من التوراة أقرؤها عليك فجعل عمر ﷺ يقرؤها، وجعل وجه رسول الله ﷺ يتغير فغمزت عمر وقلت مسخ الله وجهك ألا ترى وجه رسول الله يتغير فرمى عمر الصحيفة بشماله وقال رضيت بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا؛ فما زال يقولها حتى أسفر وجه رسول الله ثم قال والذي نفس محمد بيده لو أصبح موسى اليوم فيكم ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من الأنبياء(٢)

---

(١) صالح بن عبد الله بن حميد: نضرة النعيم جـ١،صـ٢٦٩

(٢) أبوالفضل المقرىء: عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الرازي ت ٤٥٤هـ/١٠٦٢م: أحاديث في ذم الكلام وأهله، تحقيق: ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع، دار أطلس للنشر والتوزيع، الرياض،ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، صـ٢٦٦

الصحيفة الصادقة:

قال أبو هريرة ﷺ: ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله ﷺ، من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب بيده، واستأذن رسول الله ﷺ أن يكتب ما سمع منه، فأذن له، وكان يكتب بيده ويعى بقلبه، وإنما كنت أعى بقلبى، وقال مجاهد: أتيت عبد الله بن عمرو، فتناولت صحيفة تحت فرشه، فمنعنى، قلت: ما كنت تمنعنى شيئًا! قال: هذه الصحيفة الصادقة، هذه ما سمعت من رسول الله ﷺ، ليس بينى وبينه أحد، إذا سلمت لى هذه، وكتاب الله، والوهط[١]، فما أبالى ما كانت عليه الدنيا[٢] عن مجاهد قال: رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسألته عنها فقال: هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه أحد[٣]

صحيفة صلح الحديبية:

لما وصل رسول الله ﷺ إلى الحديبية بركت ناقته ﷺ، فقال الناس: خلأت خلأت، فقال النبي ﷺ: ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها، ثم نزل ﷺ هنالك، فقيل: يا رسول الله ليس بهذا الوادي

---

(١) المطمئن من الأرض، والجميع وهاط،نشوان الحميري: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، جـ ١١، صـ٧٣٠٥

(٢) تقي الدين الفاسي: محمد بن أحمد الحسني المكي ت ٨٣٢ هـ/١٤٢٨م: العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩م ١٩٩٨ م، جـ٤، صـ ٣٤٦

(٣) ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البغدادي ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م: الطبقات الكبري،تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م، جـ٧، صـ٣٤٣

ماء، فأخرج ﷺ سهمًا من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قليب من تلك القلب، فغرزه في جوفه، فجاش الماء الرواء حتى كفي جميع أهل الجيش، وقيل إن الذي نزل بالسهم في القليب ناجية بن جندب بن عمير الأسلمي وهو سائق بدن رسول الله ﷺ يومئذ، وقيل: نزل بالسهم في القليب البراء بن عازب، ثم جرت الرسل والسفراء بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، وطال الترادع والتنازع إلى أن جاءه سهيل بن عمرو العامري، فقاضاه على أن ينصرف ﷺ عامه ذلك، فإذا كان من قابل أتى معتمرًا ودخل هو وأصحابه مكة بلا سلاح حاشا السيوف في قربها فيقيم بها ثلاثًا ويخرج، على أن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضًا، على أن من جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدًا لم يردوه إلى المسلمين، فعظم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام، وكان رسول الله ﷺ، أعلم بما علمه الله من أنه سيجعل للمسلمين فرجًا، فقال لأصحابه: اصبروا فإن الله يجعل هذا الصلح سببًا إلى طهور دينه، فأنس الناس إلى قوله بعد نفار منهم، وأبى سهيل بن عمرو أن يكتب في صدر صحيفة الصلح من محمد رسول الله قال له: لو صدقناك بذلك ما دفعناك عما تريد، ولا بد أن يكتب: باسمك اللهم فقال لعلي: وكان كاتب صحيفة الصلح امح يا علي، واكتب باسمك اللهم، وأبى علي أن يمحو بيده رسول الله فقال له رسول الله ﷺ اعرضه علي، فأشار إليه، فمحاه ﷺ بيده، وأمره أن يكتب: من محمد بن عبد الله[1]

(١) ابن عبدالبر: أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م: الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٢م،صـ١٩٣

قال ابن عباس: ليس ذلك يزيلها عنه؛ فقد محا ﷺ النبوة من صحيفة الحديبية، فلم يزل ذلك عنه النبوة حيث قال لعلي: أكتب بيننا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ، فقال المشركون: لو نعلم أنك رسول الله.. لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال لعلي ﷺ: «امحها»، فقال: والله؛ لا أمحوها، فقال ﷺ: «أرني مكانها» فأراه، فمحاها وكتب: محمد بن عبد الله[1]

وكان نقض مافي هذه الصحيفة السبب الرئيسي لتحرك جيش المسلمين لفتح مكة،وكانت السبب في تغير وجهة الدولة الإسلامية الناشئة آنذاك، لتصبح أمة تقود العالم أجمع..

صحيفة يوم الخندق:

حوصر رسول الله ﷺ وأصحابه بضع عشرة يومًا حتى خلص إلى كل امرىءٍ منهم الكرب، وقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إنك أن تشأ لا تعبد! فبينا هم على ذلك من الحال أرسل رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف – ولم يحضر الخندق الحارث بن عوف ولا قومه، ويقال حضرها الحارث بن عوف، قال ابن واقد: وهو أثبت القولين عندنا، وإن رسول الله ﷺ أرسل إليه وإلى عيينة: أرأيت إن جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟ قالا: تعطينا نصف تمر المدينة،فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك وجاءا في عشرةٍ من قومهما حين تقارب الأمر، فجاءوا وقد أحضر رسول الله

---

(١) الطيب بامخرمة: أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي ت ٩٤٧ هـ/١٥٤٠م: قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، دار المنهاج، جدة، ط١، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٨ م، جـ ١، صـ٣٤١

ﷺ وأحضر الصحيفة والدواة، وأحضر عثمان بن عفان، فأعطاه الصحيفة وهو يريد أن يكتب الصلح بينهم، وعباد بن بشر قائمٌ على رأس رسول الله ﷺ مقنعٌ في الحديد، فأقبل أسيد بن حضير إلى رسول الله ﷺ ولا يدري بما كان من الكلام، فلما جاء رسول الله ﷺ وجاء عيينة مادًا رجليه بين يدي رسول الله ﷺ وعلم ما يريدون، فقال: يا عين الهجرس ، اقبض رجليك! أتمد رجليك بين يدي رسول الله؟ ومعه الرمح، والله لولا رسول الله لأنفذت خصيتيك بالرمح! ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن كان أمرًا من السماء فامض له، وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف! متى طمعوا بهذا منا؟ فأسكت رسول الله ﷺ ودعا سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة فاستشارهما في ذلك، وهو متكىءٌ عليهما، والقوم جلوسٌ، فتكلم بكلامٍ يخفيه، وأخبرهما بما قد أراد من الصلح، فقالا: إن كان هذا أمرًا من السماء فامض له، وإن كان أمرًا لم تؤمر فيه ولك فيه هوىً فامض لما كان لك فيه هوىً، فسمعًا وطاعةً، وإن كان إنما هو الرأي فما لهم عندنا إلا السيف، وأخذ سعد بن معاذ الكتاب، فقال رسول الله ﷺ: إني رأيت العرب رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ فقلت أرضيهم ولا أقاتلهم، فقالا: يا رسول الله، إن كانوا ليأكلون العلهز[1] في الجاهلية من الجهد، ما طمعوا بهذا منا قط، أن يأخذوا تمرةً إلا بشرىً أو قرىً! فحين أتانا الله تعالى بك، وأكرمنا بك، وهدانا بك نعطي الدنية! لا نعطيهم أبدًا إلا السيف! فقال رسول الله ﷺ: شق الكتاب، فتفل سعد فيه، ثم شقه وقال: بيننا السيف! فقام عيينة وهو يقول: أما والله للتي تركتم خيرٌ لكم من الخطة التي أخذتم، وما

---

(١) بالزاي: الدم يلقى فيه وبر الإبل ويساط حتى يختلط ثم يعالج بالنار، كانوا يأكلونه في الشدائد، نشوان بن سعيد الحميرى: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، جـ ٧، صـ ٤٧٣٦

لكم بالقوم طاقة، فقال عباد بن بشر: يا عيينة، أبالسيف تخوفنا؟ ستعلم أينا أجزع! وإلا فوالله لقد كنت أنت وقومك تأكلون العلهز والرمة من الجهد فتأتون هاهنا ما تطمعون بهذا منا إلا قرىً أو شرىً، ونحن لا نعبد شيئًا فلما هدانا الله وأيدنا بمحمد ﷺ سألتمونا هذه الخطة! أما والله، لولا مكان رسول الله ما وصلتم إلى قومكم، فقال النبي ﷺ: ارجعوا، بيننا السيف! رافعًا صوته، فرجع عيينة والحارث وهما يقولان: والله، ما نرى أن ندرك منهم شيئًا، ولقد أنهجت للقوم بصائرهم! والله، ما حضرت إلا كرهًا لقوم غلبوني، وما مقامنا بشيءٍ، مع أن قريشًا إن علمت بما عرضنا على محمدٍ عرفت أنا قد خذلناها ولم ننصرها(١)

فإصرار الصحابة رضوان الله عليهم علي عدم إتمام هذه الصحيفة لأنهم علي يقين أنها ستكون ملزمة، وماكان لرسول الله ﷺ لينقضها، وماكان سادة القبائل ليجرؤ علي ذلك أيضًا.

صحف القرآن الكريم:

قبض رسول الله ﷺ والقرآن في الصدور، وفيما كتبوه عليه، ثم نهض أبو بكر بأمر الإسلام، وكانت في مدته حروب أهل الردة، ومنها غزوة أهل اليمامة، والمحاربون أكثرهم من الصحابة ومن القراء، فقتل في هذه الغزوة وحدها سبعون قارئًا من الصحابة "ويقال سبعمائة"، وكان قد قتل منهم مثل هذا العدد ببئر معونة، في عهد النبي ﷺ، عن زيد بن ثابت قال: " أرسل إلي أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة فأتيته! فإذا عمر جالس عنده قال أبو بكر: إن عمر

---

(١) الواقدي: محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م: المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ /١٩٨٩م، جـ٢، صـ٤٧٧

جاءني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى إن استحر القتل بالقراء في المواطن كلها، فيذهب قرآن كثير، وإني أرى أن نجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ! فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني في ذلك؛ حتى شرح الله صدري للذي شرح صدره، ورأيت في ذلك الذي رآه، فقال أبو بكر لزيد بن ثابت: إنك رجل شاب عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن، فاجمعه، قال زيد: فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمروني به من جمع القرآن قال: قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ! فقال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح صدر أبي بكر وعمر، قال: فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسب واللخاف، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة أو أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم} [(١)] فألحقتها في سورتها، فكانت الصحف عند أبي بكر حياته، حتى توفاه الله، ثم عند عمر، حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر[(٢)]

ويومئذ اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في الأمصار، فأخذ أهل كل مصر عن رجل من بقية القراء، فأهل دمشق وحمص أخذوا عن المقداد بن الأسود، وأهل الكوفة عن ابن مسعود، وأهل البصرة عن أبي موسى الأشعري

---

(١) آيه (١٢٨)

(٢) **البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م: دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م، جـ ٧، صـ١٤٨**

-وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب- وقرأ كثير من أهل الشام بقراءة أبي بن كعب، وكانت وجوه القراءة التي يؤدى بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها،فكان الذي يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الأمصار -إذا احتوتهم المجامع أو التقوا في المواطن على جهاد أعدائهم- يعجب من ذلك أن تكون هذه الوجوه كلها على اختلاف ما بينها في كلام واحد، فلما كانت غزوة إرمينية، وغزوة أذربيجان، كان فيمن غزاهما مع أهل العراق حذيفة بن اليمان، فرأى كثرة اختلاف المسلمين في وجوه القراءة، أنهم لا يجرون من ذلك على أصل في الفطرة اللغوية كما كان العرب يقرءون بلحونهم، ورأى ما يبدر على ألسنتهم حين يأتي كل فريق منهم بما لم يسمع من غيره، إذ يتمارون فيه حتى يكفر بعضهم بعضًا، ولم ير عندهم نكيرًا لذلك ولا إكبارًا له، بل كانوا قد ألفوه بين أنفسهم، وصار من عاداتهم وأمرهم، ففزع إلى عثمان فأخبره بالذي رأى، وكان عثمان قد رفع إليه أن شيئًا من ذلك يكون بين المسلمين الذي يقرئون الصبية،ويأخذونهم بحفظ القرآن فينشئون وبهم من الخلاف بعضهم على بعض، فأعظم رحمه الله أمر هذه الفتنة، وأكبره الصحابة جميعًا؛ لأن الاختلاف في كتاب الله مدرجة إلى مخالفة ما فيه، ومتى أهملوا بعض معانيه لم يكن بد أن يتصرفوا ببعض ألفاظه، وإنما هو اجتراء واحد فيوشك أن يكون ذلك مساغ للتحريف والتدبيل، فأجمعوا أمرهم أن ينتسخوا الصحف الأولى التي كانت عند أبي بكر، وأن يأخذوا الناس بها ويجمعوهم عليها، حذار تلك الردة المشتبهة، وإشفاقًا على الناس إن يصيروا كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها، فأرسل عثمان إلى حفصة فبعثت إليه بتلك الصحف، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت، وإلى عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فأمرهم بأن ينسخوها في المصاحف ثم قال

للرهط القرشيين الثلاثة: ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فإنه بلسانهم،قال زيد –في بعض الروايات عنه: فلما فرغت عرضته عرضة فلم أجد فيه هذه الآية: [مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا][1] قال: فاستعرضت المهاجرين أسألهم عنها، فلم أجدها عند أحد منهم، ثم استعرضت الأنصار أسألهم عنها فلم أجدها عند أحد منهم، حتى وجدتها عند خزيمة؛ فكتبتها ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه هاتين الآيتين: [لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم][2] إلى آخر السورة، فاستعرضت المهاجرين فلم أجدها عند أحد منهم، ثم استعرضت الأنصار أسألهم عنها فلم أجدها عند أحد منهم، حتى وجدتها مع رجل آخر يدعى خزيمة أيضًا؛ فأثبتها في آخر براءة ولو تمت ثلاث آيات لجعلها سورة على حدة، ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه شيئًا، ثم أرسل عثمان إلى حفصة يسألها أن تعطيه الصحيفة، وحلف لها ليردنها إليها؛ فأعطته فعرض المصحف عليها فلم يختلف في شيء، فردها إليها وطابت نفسه، وأمر الناس أن يكتبوا مصاحف، فلما ماتت حفصة أرسل إلى عبد الله بن عمر في الصحيفة بعزمه فأعطاهم إياهم فغسلت غسلًا، وكلام زيد نص قاطع في أنه كان يحفظ القرآن كله، لم يذهب عنه شيء منه، إذ كان يعرض ما في الصحف على ما ربط في صدره وثبت في حفظه، ثم هو نص كذلك على أن زيدًا كان لا يكتفي بنفسه بل يذهب يستعرض الناس حتى يجد من يؤدي إليه، كيلا ينفرد هو بالحفظ خشية أن يكون موضع ظنه وإن كان

(١) الأحزاب:آيه (٢٣)

(٢) التوبة:آيه (١٢٨)

الصحابة –رضي الله عنهم– قد أجمعوا على الثقة به، فلم يثبت ما أثبته إلا بشاهدين: أحدهما من حفظ غيره، والآخر من حفظه، ثم بعث في كل أفق بمصحف من تلك المصاحف، وكانت سبعة –في قول مشهور– فأرسل منها إلى مكة، والشام، واليمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة، وحبس بالمدينة واحدًا، وهو مصحفه الذي يسمى الإمام، ثم أمر بما عدا ذلك في صحيفة أو مصحف أن يحرق، ولم يجعل في عزيمته تلك رخصة سائغة لأحد، وكان جمع عثمان في سنة ٢٥ هـ/٦٤٥م(١)

وماقداسة المصحف الذي بين أيدي الناس الآن إلا نابعًا من هذه الصحف التي جمعها الصحابة رضوان الله عليهم.

صحيفة يوم صفين:

صفين هو موضع بين العراق و الشام و قامت الحرب بين الفريقين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، أربعين صباحًا قالوا و لما بلغ معاوية خبر الجمل دعا أهل الشام إلى القتال على الشورى و الطلب بدم عثمان فبايعوه أميرًا غير خليفة، وبعث علي بن أبي طالب جرير بن عبد الله البجلي ت ٥١هـ/٦٧١م، رسولًا إلى معاوية يدعوه إلى البيعة فكتب إليه معاوية إن جعلت لي الشام و مصر طعمة أيام حياتك، و إن حضرتك الوفاة لم تجعل لأحد بعدك في عنقي بيعة بايعتك؛ فقال علي عليه السلام لم يكن الله عز وجل يراني اتخذ المضلين عضدًا وخرج من الكوفة في تسعين ألفًا، و جاء معاوية في ثمانين ألف رجل؛ فنزل صفين يسبق عليًا إلى شرعة الفرات و أمر أبا الأعور السلمي أن يحميها و يمنع أصحاب علي الماء فبعث علي الأشتر النخعي ت

(١) مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب، جـ٢،صـ٢٧

٣٧ هـ/٦٥٧ م، فقاتلهم و طردهم و غلبهم على الشرعة؛ فأرسل إليه علي لا تنع عباد الله الماء، و جرت الرسل و المخاطبات بينهما أيامًا، ثم ناوشوا القتال أربعين صباحًا كلما وقدت الحرب رفعوا قميص عثمان ويقول معاوية ادعوا لها جوازها حتى قتل سبعون ألفًا؛خمسة وعشرون ألفًا من أهل العراق و خمسة و أربعون ألفًا من أهل الشام، و خرج يومًا علي في كتيبة و على مقدمته الأشتر النخعي فصدقوهم القتال حتى لم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض و قتلوا منهم جماعة كثيرة، وكسفت الشمس و أشرف علي عليه السلام على الفتح؛ فقال عمرو بن العاص لمعاوية إني لأعلم كلمة لو قلتها لاستقام لك الأمر أفتجعل مصر لي طعمة؛ فقال قد أطعمتك قال مرهم فلينشروا المصاحف ففعلوا ! ونادى يا أهل العراق بيننا و بينكم كتاب الله ندعوكم إليه فقالوا قد أنصفك معاوية؛ فقال علي عليه السلام و يحكم هذا مكر إنما قاتلناهم ليدينوا بحكم كتاب الله قالوا لابد لنا من الموادعة والإجابة إلى كتاب الله وكان ناشدهم في ذلك الأشعث بن قيس ٤١هـ/٦٦١م،و هو يقول:

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليها كتاب الله خير قرآن

ونادوا عليًا يا بن عليه السلام محمد أما تتقي أن يهلك الثقلان

قال علي عليه السلام هذا كتاب الله فمن يحكم بيننا فاختار أهل الشام عمرو بن العاص ت ٤٣هـ/٦٦٤م، و اختار أهل العراق أبا موسى الأشعري ت ٤٤هـ/٦٦٥م، فقال علي عليه السلام هذا ابن عباس ت ٦٤هـ/٦٨٧م، فقال الأشعث بن قيس لا نرضى به و الله لا يحكم فينا مضري أبداً فقال الأحنف إن أبا موسى رجل قريب القعر اجعلني مكانه آخذ لك بالوثيقة وأضعك من هذا الأمر بحيث تحب فلم يرض به أهل اليمن و فيه يقول الشاعر:

لـو كـان للقـوم يعصـمون بـه عند الخطوب رموكم بابن عباس

لكن رموكم بوعر من ذوي يمن يدر ما ضـرب أخمـاس لأسـداس

فكتبوا القضية على أن يحكم الحكمان بكتاب الله و السنة و الجماعة غير الفرقة، فإن فعلا غير ذلك فلا حكم لهما، و صيروا الأجل شهر رمضان على أن يجتمع الحكمان في موضع عدلٍ بين الكوفة و الشام،ويحكما بذلك القضية فخرج الأشعث بن قيس و جعل يقرؤها على الناس فمر به عروة بن أدية التميمي ت ٥٨هـ/٦٧٨م، فسل سيفه و ضرب به عجز دابته و قال تحكمون الرجال و لا حكم إلا لله(١)

ومما ورد في ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن طريق حبيب بن أبى ثابت قال: أتيت أبا وائل أحد رجال على بن أبى طالب فقال: كنا بصفين، فلما استحر القتل بأهل الشام قال عمرو لمعاوية: أرسل إلى علىٍّ المصحف؛ فادعه إلى كتاب الله، فإنه لا يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾(٢) فقال على: نعم، أنا أولى بذلك، فقام القُراء – الذين صاروا بعد ذلك خوارج – بأسيافهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا نمشى إلى هؤلاء حتى يحكم الله بيننا وبينهم؛ فقام سهل بن حنيف الأنصاري ﷺ ت ٣٨هـ/٦٥٨م فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ ، يوم الحديبية، ولو نرى قتالًا لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي بين رسول الله ﷺ، وبين المشركين، ثم حدثهم عن معارضة عمر ﷺ، للصلح يوم الحديبية،

(١) ابن المطهر: البدء والتاريخ، جـ٥، صـ٢٢٠

(٢) آل عمران :آيه (٢٣)

ونزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ ، فقال على: أيها الناس إن هذا فتح، فقبل القضية ورجع، ورجع الناس(١)

الاستشهاد بصحيفة الحديبية:

لما استقر الخوارج سنة ٤٠هـ/٦٦٠م، فى حروراء بالكوفة وهم في ستة آلاف مقاتل وقيل ثمانية الآف مضى اليهم علي بنفسه وخطبهم متوكئا على قوسه؛ وقال هذا يوم من فلح فيه يعنى من ظهرت حجته فلح يوم القيامة؛ أنشدكم الله هل تعلمون أن لا أحد أكره منى للحكومة قالوا اللهم نعم ! قال فهل علمتم أنكم اكرهتموني عليها قالوا اللهم نعم !قال فعلام خالفتموني ونابذتموني قالوا أتينا ذنبًا عظيمًا فتبنا إلى الله تعالى منه فتب أنت إليه منه واستغفر نعد إليك قال فإني أستغفر الله من كل ذنب فرجعوا معه؛ فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن عليًا رجع عن التحكيم وتاب منه ورآه ضلالًا؛ فأتاه الأشعث بن قيس وقال له يا أمير المؤمنين إن الناس قد تحدثوا أنك قد رأيت الحكومة ضلالًا والإقامة عليها كفرًا وإنك قد بدا لك ورجعت عنها! فخطب الناس وقال من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب ومن رآها ضلالًا فهو أضل منها فلما سمعت الخوارج منه هذا خرجت من المسجد، فقيل إنهم خارجون فقال لا أقاتلهم حتى يقاتلونى وسيفعلون فوجه إليهم عبد الله بن عباس رضى الله عنهما؛ فلما أتاهم رحبوا به وأكرموه؛ وقالوا ما جاء بك يا ابن عباس قال جئتكم من عند صهر رسول الله، وابن عمه وأعلمنا بربه وسنة نبيه ومن عند المهاجرين والأنصار، قالوا يا ابن عباس إنا أتينا ذنبًا عظيمًا حين حكمنا الرجال في دين الله تعالى فإن تاب كما تبنا ونهض لمجاهدة عدونا رجعنا إليه؛ فقال لهم ابن عباس أنشدكم الله إلا ما صدقتم؛ أما علمتم أن الله تعالى أمر

---

(١) علي محمد محمد الصلابي: علي بن أبي طالب ﷺ شخصيته وعصره، الطبعة الأولى للناشر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، صـ٢٤٠

بتحكيم الرجال في أرنب تساوى ربع درهم يصاد في الحرم،فقال عز من قائل [يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ][1] وكذا في شقاق رجل امرأته بقوله تعالى: [فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ][2] فقالوا اللهم نعم قال فأنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين قريش في الحديبية؛ قالوا اللهم نعم ولكن عليًا محا نفسه عن الخلافة بالتحكيم، قال ابن عباس ليس ذلك يزيلها عنه، فإن رسول الله ﷺ عندما محا اسم النبوة من الصحيفة فلم يزل ذلك عنه اسم النبوة حيث قال لعلى أكتب الشرط بيننا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال المشركون لو علمنا أنك رسول الله لاتبعناك ولكن اكتب اسمك واسم ابيك فأمر عليًا أن يمحوها فقال على والله لا أمحوها فقال رسول الله أرنى مكانها؛ فآراه مكانها فمحاها وكتب ابن عبد الله؛فلما سمع الخوارج منه ذلك رجع منهم ألفان وبقى أربعة آلاف أو ستة على الخلاف[3] فإصرار سيدنا علي بن أبي طالب علي عدم الرجوع في التحكيم يؤكد احترامه،لوثيقة التحكيم التي جرت، حتي وإن كانت علي غير هوي منه،واستشهاد سيدنا عبدالله بن عباس بصحيفة الحديبية ليؤكدان أن مجري التاريخ يمكن أن يتغير ولا أن يبدلوا ماكتبوه واتفقوا عليه في صحفهم بل من الممكن أن نجزم بأنه تغير فعلًا في بعض الأحايين تبعًا لذلك.

---

(١) المائدة آيه (٩٥)

(٢) النساء آيه (٣٥)

(٣) اليافعي: أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤١٣هـ /١٩٩٣م جـ ١، صـ١١٦

المبحث الثاني
الصحيفة في العصرين الأموي والعباسي

لم تكن الصحف ذات انتشار واسع قبل العصر الأموي لاعتماد العرب ومن بعدهم صحابة رسول الله ﷺ علي الحفظ والتلقين دون التدوين، ولقلة القارئين والكاتبين، وكان ماكتب في الصحف آنذاك من القلة بما لا تخطئه عين، حيث كان التدوين لا يرقي إلي مكانة ملكة الحفظ عندهم،لهذا كان لايدونوا في الصحف إلا الأمور التي هي من الأهمية بمكان، حيث يلتزم بما فيها ولا سبيل للخروج عنها.

فقد كان العرب فى الجاهلية أميين، لا يعرف القراءة والكتابة إلا قليل منهم، فلما جاء الإسلام أخذ يحضهم على تعلم الكتابة، وعلى العلم والتعلم، وكان اختلاطهم بعد الفتوح بالأعاجم مهيئًا لهم أن يقفوا منهم على فكرة الكتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض فى موضوع معين، وقد أخذوا يتحولون سريعًا من أمة أمية لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر، ووعته الآذان؛إلى أمة كاتبة، تدون معارفها العربية والإسلامية واضعة بعض المصنفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية، وكان من أوائل ما عنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبار آبائهم فى الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم، ومن ثم كثير بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار[1] انقضى زمن الخلفاء الراشدين ولم يدون فيه كتاب إلا ما كان من أمر المصحف، وكان مرجع الناس في أمر دينهم ودنياهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله، فإذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا إلى الخلفاء وفقهاء الصحابة، ثم لما انتشر الإسلام زمن بني أمية واختلطت العرب ففسدت فيهم ملكة اللسان العربي وفشا اللحن

(١) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، جـ٢،صـ٤٥١

وأشفقوا على القرآن من التحريف وعلى اللغة من الفساد دونوا النحو وكان أول من كتب فيه أبو الأسود الدؤلي ت ٦٩ هـ/٦٨٨ م، وقد تلقى مبادئه عن الإمام علي، وأخذ عنه فتيان البصرة وخصوصًا الموالي إذ كانوا أحوج الناس إلى النحو واشتغل أهل الكوفة به أن فشا بالبصرة ولم ينقض هذا العصر حتى اشتغل به طبقتان واحدة من البصريين وطبقة من الكوفيين، ثم لما حدثت الفتن وتعددت المذاهب والنحل وكثرت الفتاوى والرجوع فيها إلى رؤساء، ومات أكثر الصحابة، خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم ويتركوا سنة رسول الله فأذن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لأبي بكر محمد بن عمرو بن حزم ت ١٢٠هـ/٧٣٧م، في تدوين الحديث، انقضى هذا العصر ولم يدون فيه من علوم اللغة والدين غير النحو وبعض الحديث وبعض التفسير، وأما العلوم الأخرى فيروى أن خالد بن يزيد بن معاوية ت ٩٠هـ/٧٠٩م، حبب إليه مطالعة كتبًا لأوائل من اليونان فترجمت له ونبغ فيها؛ ووضع كتبًا في الطب والكيمياء، وأن معاوية استقدم عبيد بن شرية من صنعاء فكتب له كتاب "الملوك وأخبار الماضين" وإن وهب بن منبه والزهري وموسى بن عقبة كتبوا في ذلك أيضًا كتبًا، وأن زياد بن أبيه وضع لابنه كتابًا في مثال قبائل العرب، وأن ماسرجويه متطبب البصرة تولي في الدولة المروانية ترجمة كتاب أهرون بن أعين من السريانية إلى العربية وأن يونس الكاتب بن سليمان ألف كتابًا في الأغاني ونسبتها إلى من غنى فيها ولم يبلغ التصنيف شأواً يذكر[١]

---

(١) الهاشمي: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى ت ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، بيروت، جـ٢، صـ١٣٠

صحيفة الصلح بين الحسن ومعاوية:

لما رأي الحسن بن علي تفرق الأمر عنه؛ كتب إلي معاوية؛ وذكر شروطًا وقال له: إن أنت أعطيتني هذا فأنا سميع مطيع وعليك أن تفي له به وقال لأخيه الحسين وعبد الله بن جعفر إنني قد راسلت معاوية في الصلح فقال له: الحسين أنشدك الله أن لا تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة أبيك ! فقال له الحسن أسكت أنا أعلم بالأمر منك فلما انتهي كتاب الحسن إلي معاوية أمسكه وكان قد أرسل عبد الله بن عامرت ٥٩هـ/ ٦٧٨ م،وعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس ت ٥٠هـ/٦٧٠م،إلي الحسن قبل وصول الكتاب ومعهما صحيفة بيضاء مختوم علي أسفلها وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك فلما أتت الصحيفة إلي الحسن اشترط أضعاف الشروط التي سأل معاوية قبل ذلك؛ وأمسكها عنده ! فلما سلم الحسن الأمر إلي معاوية طلب أن يعطيه الشروط التي في الصحيفة التي ختم عليها معاوية فأبي ذلك معاوية وقال له قد أعطيتك ما كنت تطلب، فلما اصطلحا قام الحسن في أهل العراق فقال يا أهل العراق إنه سخي بنفسي عنكم ثلاث قتلكم أبي وطعنكم إياي وانتهابكم متاع وكان الذي طلب الحسن من معاوية أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة ومبلغه خمسة آلاف،وخراج دارابجرد من فارس وأن لا يشتم عليا فلم يجبه إلي الكف عن شتم علي فطلب أن لا يشتم وهو يسمع فأجابه إلي ذلك ثم لم يف له به أيضا،وأما خراج دارابجرد فإن أهل البصرة منعوه منه وقالوا هو فيئنا لا نعطيه أحدًا وكان منعهم بأمر معاوية أيضًا وتسلم معاوية الأمر لخمس بقين من ربيع الأول وقيل في ربيع الآخر وقيل في جمادى الأولى وذلك سنة ٤١هـ/٦٦١م[١]

(١) ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، جـ٣، صـ٦

صحيفة جابر بن عبدالله[١]

عن سليمان بن حرب قال: كان سليمان اليشكري[٢] جاور بمكة سنة جابر بن عبد الله، وكتب عنه صحيفة، ومات قديمًا، وبقيت الصحيفة عند أمه، فطلب أهل البصرة إليها أن تعيرهم فلم تفعل، فقالوا: فأمكنينا منها حتى نقرأها، فقالت: أما هذا فنعم. قال: فحضر قتادة ت ١١٨هـ/٧٣٦م، وغيره فقرءوها، فهو هذا الذي يقول أصحابنا حدث سليمان اليشكري أو نحو هذا من الكلام[٣]

وقال أحمد بن حنبل ت ٢٤١هـ/٨٥٥م: كان قتادة أحفظ هل البصرة، لا يسمع شيئًا إلا حفظه، قُرئت عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها[٤]

---

(١) جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن سارده بن يزيد بن جشم بن الخزرج الأكبر، يكنى أبا عبدالله شهد العقبة وهو غلام شاب مع أبيه وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مشاهده وعاش دهرًا طويلا وروى حديثًا كثيرًا ومات بالمدينة سنة ٧٨هـ/٦٩٧م، الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م المتفق والمفترق، تحقيق محمد صادق الحامدي، دار القادري، دمشق،١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، جـ٢،صـ١٤١

(٢) سليمان بن قيس اليشكري البصري ثقة من الثالثة مات قديمًا قبل الثمانين من الهجرة، ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م: تقريب التهذيب، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد،سوريا، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، صـ٢٥٣

(٣) الفسوي: المعرفة والتاريخ، جـ٢،صـ٢٧٩

(٤) الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْمَازت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام،ت حقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت.، ط٢، ١٤١٣ هـ /١٩٩٣ م، جـ٧، صـ ٤٥٥

حكى أبو أحمد العسكري[1] في كتاب التصحيف أن الناس غبروا يقرأون القرآن في مصحف عثمان بن عفان ﷺ نيفًا وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ففزع الحجاج بن يوسف إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهات علامات فيقال إن نصر بن عاصم[2] قام بذلك فوضع النقط أفرادًا وأزواجًا وخالف بين أماكنها فغبر الناس بذلك زمانًا لا يكتبون إلا منقوطًا وكان مع استعمال النقط يقع التصحيف فأحدثوا الإعجام فكانوا يتبعون النقط والإعجام فإذا أغفل الاستقصاء عن الكلمة

(١) الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل بن زيد بن حكيم العسكري أبو أحمد اللغوي العلامة، كان من الأئمة المذكورين في التصرف في أنواع العلوم والتبحر في فنون الفهوم، سمع ببغداد والبصرة وأصبهان وغيرها، واشتهر في الآفاق بالدراية والإتقان، وانتهت إليه رياسة التحديث والإملاء للآداب والتدريس بقطر خوزستان، ورحل إليه الأجلاء، وكانت وفاته سنة ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م، السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، جـ١، صـ٥٠٦

(٢) ابن أبي سعيد الليثي ويقال الدؤلي المقرى ء النحوي البصري أخذ القراءة عن أبي الأسود الدؤلي والنحو واللغة عن يحيى بن يعمر وهو أول من وضع العربية روى عنه القراءة أبو عمرو بن العلاء وعبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي وسمع منه قتادة وهو أول من نقط المصاحف وخمسها وعشرها توفي سنة ٩٠هـ/٧٠٨م بالبصرة، الفيروزأبادي محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي ت ٨١٧ هـ/١٤١٤م: البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت،ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، صـ ٧٩

لم توف حقوقها إعترى التصحيف فالتمسوا حيلة فلم يقدروا فيها إلا على الأخذ من أفواه الرجال بالتلقين[١]

الصحيفة الصحيحة:

من العلماء من ذكر أن عبد الله بن عمرو بن العاص ت ٦٣هـ/٦٨٣م ، كان قد كتب حديث الرسول ﷺ، وذلك أنه استأذنه في أن يكتب حديثه فأذن له، وروي عنه أنه قال: حفظت عنه ألف مثل، وروي عن أبي هريرة قوله: "ما أجد من أصحاب رسول الله ﷺ، أكثر حديثًا مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب، ولكننا لم نسمع بما حل بالصحف التي دون بها عبد الله حديث الرسول ﷺ، ولا أدري إذا كان ما روي عنه في المسانيد، مثل مسند أحمد بن حنبل قد نقل من تلك الصحيفة نقلًا أم رواية، وهناك روايات تذكر أن همام بن منبه[٢] أخذ عن أبي هريرة، حديث رسول الله ﷺ، وكتب ما أخذه في صحيفة عرفت بـ"الصحيفة الصحيحة" في مقابل "الصحيفة الصادقة" المنسوبة لعبد الله بن عمرو بن العاص، ونجد نقولًا منها في البخاري، وفي مسند أحمد بن حنبل، وهذه الصحيفة، إن صح أنها من وضع همام بن منبه وأنها أصيلة، ذات أهمية كبيرة بالطبع؛ لأنها أقدم صحيفة نعرفها في الحديث بعد صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص، وإن كانت دونها في المنزلة؛ لأنها

---

(١) الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م:الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م جـ١١، صـ٢٣٩

(٢) من الأبناء، وكان أكبر من أخيه وهب بن منبه، ولقي أبا هريرة وروى عنه رواية كثيرة، وتوفي قبل وهب، مات سنة ١٠١هـ/٧١٩م، ابن سعد: الطبقات الكبري، جـ٦، صـ ٧١

أخذت عن لسان أبي هريرة، وأخذ عبد الله حديثه من فم الرسول ﷺ، ومن الجائز أن يكون حديث أبي هريرة بلسانه، أما حديث عبد الله، فربما كان بلسانه أيضًا، غير أنه كان ينقله من فم الرسول فيحفظه ثم يدونه، فهو أقرب إلى الصحة من صحيفة همام، وربما كان عبد الله، قد دون حديثه بحضرة الرسول ﷺ (١)

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، جـ١٦، صـ ٣٨٤

صحيفة البيعة لعمر بن عبدالعزيز ت ١٠١هـ/ ٧١٩م:

في أخبار سليمان بن عبد الملك ت ٩٩ هـ/٧١٧ م، أنه لما حضرته الوفاة أراد أن يعهد إلى بعض أولاده، فصرفه وزيره الصالح رجاء بن حيوة ت ١١٢ هـ / ٧٣٠م، عن ذلك وما زال به حتى عهد إلى عمر بن عبد العزيز من بعده وصوب ذلك رجاء؛ فكتب سليمان العهد في صحيفة وختمها؛ ولم يشعر بذلك عمر ولا أحد من بني مروان سوى سليمان ورجاء، ثم أمر صاحب الشرطة بإحضار الأمراء ورؤوس الناس من بني مروان وغيرهم، فبايعوا سليمان على ما في الصحيفة المختومة، ثم انصرفوا، ثم لما مات الخليفة استدعاهم رجاء بن حيوة فبايعوا ثانية قبل أن يعلموا موت الخليفة، ثم فتحها فقرأها عليهم، فإذا فيها البيعة لعمر بن عبد العزيز، فأخذوه فأجلسوه على المنبر وبايعوه فانعقدت له البيعة(١)

كانت الحاجة إلى التدوين قد اشتدت في مبدأ الدولة العباسية لاتساع ممالك الإسلام فهب العلماء إلى تهذيب ما كتب في الصحف المتفرقة وما حفظوه في الصدور ورتبوه وبوبوه وصنفوه كتبًا، وكان من أقوى الأسباب لإقبال العلماء على التصنيف حث الخليفة أبي جعفر المنصورت ١٥٨ هـ / ٧٧٥م عليه وحمله الأئمة والفقهاء على جمع الحديث والفقه ولم يقتصر على معاضدة العلوم الإسلامية؛ بل أوعز إلى العلماء والمترجمين أن ينقلوا إلى العربية من الفارسية واليونانية فنون الطب والسياسة والحكمة والفلك والتنجيم والآداب، وتابعه في ذلك أولاده وأحفاده حتى زخرت بحور العلم واخترعت الفنون، وتفرعت المسائل ودونت الكتب في كل فن وكانت كتابة التصنيف

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٩، صـ ٢٢٢

والتدوين في القرن الأول وبعض الثاني من النهضة عبارة عن سلسلة من الروايات المسندة إلى رواتها، وبعضها يروى بلفظ أصحابها غالبًا؛ كما في الشعر والخطب والرسائل، وبعضها بلفظ الراوي كما في أخبار الفتوح والتاريخ والقصص، ثم ظهرت بعد ذلك في العلوم الشرعية واللسانية طبقات الاستنباط والتعليل والتفريع والشرح والاختصار وجمع الفروع تحت كليات عامة فلم يكن للمؤلفين بد من حذف أسانيد الروايات وترك المحافظة على نقلها بلفظها إلا في الحديث ونحوه[١]

الصحيفة الصفراء:

عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٢] أنه سئل عن آل العباس:هل عندهم من علم بشئ؟ قال: نعم، عندهم صحيفة صفراء كانت لعلي بن أبي طالب، وظعن الحسن، وقدم على معاوية بالشام، فتصاحب الحسن والحسين ومحمد بنو علي بن أبي طالب، فانطلق محمد بن الحنفية[٣] فدخل إلى الحسن والحسين فقال لهما: إنكما ورثتما أبي دوني، وإن

---

(١) الهاشمي: جواهر الأدب، جـ٢، صـ١٧١

(٢) محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب كنيته أبو جعفر وهو والد جعفر بن محمد يروى عن جابر بن عبد الله روى عنه عمرو بن دينار وجعفر بن محمد، مات سنة ١١٤هـ /٧٣٢م، ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م،: الثقات،تحقيق السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٣٩٥/ ١٩٧٥م، جـ٥، صـ٣٤٨

(٣) أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي ابن الحنفية، وكانت الشيعة قد لقبته المهدي، وتزعم شيعته أنه لم يمت، وأنه بجبل رضوى مختفيًا عنده عسل وماء، توفي عن سبعين إلا سنة، وذلك سنة ٨١هـ/٧٠٠م، الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ١، صـ٦٨

لم يكن رسول الله ﷺ ولدني فقد ولدني أبوكما، ولكما لعمري علي الفضل ولا كذب، أعطوني بعض ما أتجمل به من أبي فقد عرفتما حبه كان لي فقال الحسن للحسين: يا أخي، هو أخونا وابن أبينا فأعطه شيئًا من علم أبينا، قال: فأعطاه الحسين صحيفة صفراء فيها علم رايات خراسان السود، متى تكون، وكيف تكون، ومتى تقوم، ومتى زمانها وعلامتها وآياتها، وأي أحياء العرب أنصارهم، وأسماء رجال يقومون بذلك، وكيف صفتهم، وصفة رجالهم وأتباعهم،فكانت تلك الصحيفة عند محمد بن علي ابن الحنفية حتى إذا حضره الموت دفعها إلى ابنه عبد الله بن محمد(١)، وهو الذي يكنى أبا هاشم، فكانت عنده، حتى إذا حضره الموت، وذلك عند منصرفه من عند الوليد بن عبد الملك ٩٦هـ/٧١٥م ، ومات بالحميمة عند محمد بن علي بن عبد الله بن عباس(٢)، فدفع الصحيفة إليه، وأوصاه بما أحب، فكانت عند محمد بن علي،

---

(١) عبد الله بن محمد الحنفية أبو هاشم العلوي المدني روى عن أبيه وعن صهر له صحابي من الأنصار كان صاحب الشيعة فأوصى إلى محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس والد السفاح ودفع إليه كتاب الشيعة وصرف الشيعة إليه وقال أتباع أبي هاشم هذا المعروفون بالهاشمية من جملة الشيعة بموت السيد محمد أبي أبي هاشم وانتقال الإمامة منه إلى ابنه أبي هاشم وأن أباه أطلعه على الأسرار ثم أختلفوا بعده على خمس فرق فرقة قالت إنه مات بأرض الشراة، وذلك بالحميمة سنة ٩٨هـ /٧١٦م، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ١٧، صـ٢٢٨

(٢) كان ابو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيه أوصى إليه ودفع اليه كتبه، فكان محمد بن على وصى أبى هاشم، وقال له أبو هاشم: ان هذا الأمر إنما هو في ولدك، فكانت الشيعة الذين كانوا يأتون أبا هاشم ويختلفون إليه قد صاروا بعد ذلك الى محمد بن على، توفى بالشراة من أرض الشام في خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان سنه١٢٥هـ/٧٤٢م،وهو يومئذ ابن ستين سنة، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ١١، صـ٦٤٥

حتى إذا حضره الموت أوصى بها إلى إبراهيم بن محمد بن علي[١] وكان رئيسهم وسيدهم وكبيرهم، وأبو هاشم هو الذي قال لمحمد بن علي، وإبراهيم ابنه، وهو ابن أربع سنين، يلعب عندهما، فقال محمد بن علي لإبي هاشم: يا ابن عم ! هل لنا ولد العباس نصيب فيما يذكر من رايات بني هاشم؟ فقال له أبو هاشم: وهل هذا الأمر إلا لكم من أهل بيت نبيكم، فقال له محمد بن علي: وكيف ذاك يا أخي؟ فقال له: هل ترى هذا الغلام، يعني إبراهيم ! هو صاحب الأمر، حتى إذا يكاد يبلغ الأمر، ونازله، نذر به القوم يعني بني أمية فيقتلونه، فيكون لك ابنان: عبد الله وعبيد الله، فيملكان ويتناسل الملك في أولادهما،عهد أبي هاشم إلى محمد بن علي قال عبد الله بن عمير: سمعت سالمًا يحدث قال: قال محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، ودخلت عليه في بيت من بيوته، توفي أبو هاشم في هذا البيت، وقال لي وقد أدنف، ولم أكن أفارقه في مرضه: فإنما عند الله أحسبني لما بي، فأخرج عني من في البيت فإني أريد أن أعهد إليك، قال ومعي داود وسليمان ابنا علي وعروة مولانا، فأمرتهم بالخروج، فلما خرجوا قال: يا أخي أوصيك بتقوى الله فإنها خير ما تواصى به العباد، ومن بعد ذلك، فإن هذا الأمر الذي نطلبه ونسعى فيه ، فيك وفي ولدك[٢] وأخبرني أن عليًا عليه السلام رأى على عهد رسول الله ﷺ كأن في المسجد مائدة

---

(١) اختلف أهل السير في أمر إبراهيم بن محمد، فقال بعضهم: لم يقتل ولكنه مات في سجن مروان بن محمد بالطاعون، وقيل مات مسمومًا، ولم يلبث مروان بعد قتلهم إلا نحوًا من خمس عشرة ليلة، حتى قدم حران منهزمًا من الزاب، فخلى عن أبي محمد ومن كان في حبسه من المحبسين، وذلك سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م،الطبري: تاريخ الرسل والملوك،جـ٧، صـ٤٣٥

(٢)(مؤلف من القرن الثالث الهجري: أخبار الدولة العباسية، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري الدكتور عبد الجبار المطلبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،صـ١٨٤

عظيمة وعليها رؤوس غنم، فأقبل أبو بكر فجلس عليها فتناول شيئًا يسيرًا ثم نهض، ثم جاء عمر فجلس فأكل منها طويلًا ثم نهض، ثم جاء عثمان فجلس عليها، فأكل منها طويلًا ثم نهض، ثم جاءت بنو أمية فأكلوا منها طويلًا كثيرًا، ثم جاء عبد الله بن عباس وولده وولد ولده فأقاموهم، وجلسوا فأكلوا جميع ما كان على المائدة ولم آكل معهم، فقصها على النبي ﷺ فقال: الحمد لله الذي فتح الاسلام بنا ويختمه بنا، هؤلاء القوم يلون ثم يختم الاسلام بولد عبد الله بن عباس، قال: ثم تلا رسول الله ﷺ: [وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ][1] وإليك هذا الأمر، وفي ولدك يصير، وقد استودعتك من الأمر ما استودعت فاتق الله، وانظر فيما أنت فيه ليوم مرجعك، وأوص من بعدك[2]

صحف مترجمة:

قال معمر بن الأشعث[3]: قلت لبهلة الهندىّ أيام اجتلب يحيى بن خالد بن برمك ت ١٩٠هـ /٨٠٥م، أطباء الهند: ما البلاغة عند أهل الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة، ولكننى لا أحسن ترجمتها، ولم أعالج هذه الصناعة، فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها، ولطيف معانيها، قال ابن الأشعث: فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح، قليل اللّحظ، متخيّر اللفظ، لا يكلّم سيد الأمّة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السّوقة، ويكون

---

(١) النور:آيه (٥٥)

(٢) مؤلف من القرن الثالث الهجري: أخبار الدولة العباسية، صـ١٨٤

(٣) ذكره ابن النديم في الفهرست: حين تحدث عن المدائني الذي توفي سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م، أنه كان أحد غلمانه الستة وكان منقطعًا إليه،تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت،ط٢، ١٤١٧ هـ /١٩٩٧ م، صـ١٣٠

في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقّق المعاني كلّ التدقيق، ولا ينقّح الألفاظ كلّ التنقيح، ولا يصفّيها كل التصفية، ولا يهذّبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيمًا، أو فيلسوفًا عليمًا، ومن قد تعوّد حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ؛ وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة، لا على جهة التصفح والاعتراض ، ووجه التظرّف والاستظراف(١)

صحيفة البيعة لأبناء هارون الرشيد:

في سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م،حج بالناس فيها الرشيد ومعه ابناه محمد الأمين، وعبد الله المأمون، فبلغ جملة ما أعطى لأهل الحرمين ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار، وذلك أنه كان يعطي الناس فيذهبون إلى الأمين فيعطيهم، فيذهبون إلى المأمون فيعطيهم، وكان إلى الأمين ولاية الشام والعراق، وإلى المأمون من همدان إلى بلاد المشرق،ثم تابع الرشيد لولده القاسم من بعد ولديه، ولقبه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم، وكان الباعث له على ذلك أن ابنه القاسم هذا كان في حجر عبد الملك بن صالح(٢) ، فلما بايع الرشيد لولديه كتب إليه:

يـــا أيهـــا الملـــك الـــذي لـــو كـــان نجمًـــا كـــان ســـعدًا

اعقـــد لقاســـم بيعـــة واقـــدح لـــه في الملـــك زنـــدًا

(١) الحُصري القيرواني: إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري ت ٤٥٣هـ/١٠٦١م: زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت، صـ١٤٥

(٢) عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب العباسي الأمير، ولاه الأمين الجزيرة والشام، فسار إليها، فنزل الرقة، وكتب إلى أمراء الأجناد والعرب ووجوه الناس، فأقبلوا عليه من كل وجه، فأحسن إليهم، ووصلهم بالأموال والخلع، وكانت وفاته سنة ١٩٦هـ/٨١١م،سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله ت ٦٥٤ هـ/١٢٥٦م: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق محمد بركات، كامل محمد الخراط، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط١، ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م، جـ١٣، صـ٢٥٢

فـــالله فـــرد واحـــد فاجعـــل ولاةالعهـــد فـــردًا

ففعل الرشيد ذلك، وقد حمده قوم على ذلك، وذمه آخرون،ولم ينتظم للقاسم هذا الأمر، بل اختطفته المنون والأقدار عن بلوغ الأمل والأوطار، ولما قضى الرشيد حجه أحضر من معه من الأمراء والوزراء، وأحضر وليي العهد محمدًا الأمين وعبد الله المأمون،وكتب بمضمون ذلك صحيفة، وكتب فيها الأمراء والوزراء خطوطهم بالشهادة على ذلك ، وأراد الرشيد أن يعلقها في الكعبة فسقطت فقيل: هذا أمر سريع انتقاضه(١)

صحف المحدثين:

قال أبو داود: جاء ابن المبارك(٢) إلي ثابت بن أبي صفية أبو حمزة الثمالي الأزدي الكوفي(٣) فدفع إليه صحيفة فيها حديث سوء في عثمان، فرد الصحيفة على الجارية، وقال: قولي له: قبحك الله وقبح صحيفتك(٤)

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٠، صـ٢٠٢

(٢) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي الإمام، شيخ الإسلام، عالم زمانـــه، وأميـــر الأتقياء في وقته، أحد الأعلام، وكانت أمه خوارزمية، أخذ عن بقايا التابعين، وأكثر مـــن الترحال والتطواف، وإلى أن مات في طلب العلم، وفي الغزو، وفي التجارة، والإنفاق على الإخوان في الله، وتجهيزهم معه إلى الحـــج.،مـــات فـــي فـــي شـــهر رمضـــان، ســـنة ١٨١هـــ/٧٩٧م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـــ٨، صـــ٣٧٨

(٣) من أهل الكوفة مولى المهلب بن أبى صفره، واسم أبى صفية دينار، روى عنه ابـــن عيينة ووكيع كثير الوهم في الأخبار حتى خرج عن حد الإحتجاج به إذا انفرد مع غلو في تشيعه، مات في سنة ١٤٨هـــ/٧٦٥م، وكان ضعيفًا، ابن حبان:المجروحين، صـــ٢٠٦

(٤) السيد أبو المعاطي النّوري: الجامع في الجرح والتعديل، عالم الكتـــب، بيـــروت،ط١، ١٤١٢ هـــ /١٩٩٢ م، جـــ١، صـــ١١٦

قال أبو خثيمة زهير بن حرب[1]: لما خرجت أنا وأحمد بن حنبل ت ٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م ، ويحيى بن معين ت ٢٣٣ هـ / ٨٤٨ م، نريد عبد الرزاق[2]، فلما وصلنا مكة كتب أصحاب الحديث إلى صنعاء، إلى عبد الرزاق: قد أتاك حفاظ الحديث، فانظر كيف يكون: أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأبو خثيمة زهير بن حرب، فلما قدمنا صنعاء غلق الباب عبد الرزاق، ولم يفتحه إلا لأحمد بن حنبل، لديانته، فدخل، فحدثه بخمسة وعشرين حديثًا، ويحيى بن معين بين البابين جالس، فلما خرج قال يحيى لأحمد: أرني ماحدثك؟ فنظر فيها، فخطأ الشيخ في ثمانية عشر حديثًا، فلما سمع أحمد بالخطأ رجع، فأراه موضع الخطأ، وأخرج عبد الرزاق الأصول، فوجده كما قال يحيى، ففتح الباب، فقال: ادخلوا، وأخذ مفتاح بيت، فسلمه إلى أحمد بن حنبل، وقال: هذا البيت ماد خلته يد غيري منذ ثمانين سنة أسلمه إليكم بأمانة الله على أنكم لا تقولون مالم أقل، ولاتدخلون علي حديثًا من حديث غيري، ثم أومأ لأحمد، فقال: أنت أمين الله على نفسك وعليهم، قال: فأقاموا عنده حولاً، فلما انصرفوا بلغهم أن بالمدينة شيخاً بدويًا عنده خمسون حديثًا في صحيفة، فجاء يحيى، فأخذ الصحيفة، وجلس يكتب حديثًا من حديثه، وحديثين من حديث

---

(١) أبو خيثمة اسمه زهير بن حرب بن شداد أصله من نسا سكن بغداد، وكان متقنًا، ضابطًا من أقران أحمد بن حنبل ويحيى، مات في ربيع الأول سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م، ابن حبان: الثقات، جـ٨، صـ٢٥٦

(٢) عبد الرزاق بن همام، العلامة الحافظ أبو بكر الصنعاني صاحب المصنفات، روى عن معمر وابن جريح وطبقتهما، ورحل الأئمة إليه إلى اليمن، وله أوهام مغمورة في سعة علمه، عاش بضعًا وثمانين سنة، وتوفي في شوال سنة ٢١١هـ/٨٢٦م، الذهبي: العبر في خبر من غبر، جـ ١، صـ٢٨٣

غيره، ثم مزجها كلها، ثم جاء ليقرأ، فكان إذا مر على الشيخ حديثه عده، فإذا مر على أذنه حديث غيره قال بيده هكذا، وأشار بيده: لا، قال: فلم يزل حتى انتقاها، فما مر عليه حرف، ثم أجال نظره في وجوه القوم، وهو يومئذ لا يعرفهم، فوقعت عيناه على أحمد بن حنبل، فقال: أما أنت فلا تستحل أن تفعل مثل هذا، ثم وقعت عينه علي – يقول زهير – فقال: أما أنت فلا تحسن أن تفعل مثل هذا، وأومأ بيده إلى يحيى بن معين، ثم رفع رجله، فصك بها صدره، فأقلبه على قفاه، فقال: لاتعد لمثل هذا! وقال عبد الرزاق: كتب عني ثلاثة لا أبالي ألا يكتب عني غيرهم؛ كتب عني ابن الشاذكوني[1]، وهو من أحفظ الناس، وكتب عني يحيى بن معين، وهو من أعرف الناس بالرجال، وكتب عني أحمد بن حنبل وهو من أزهد الناس[2]

ومن هذه الصحف أيضًا أن أحمد بن حنبل رحمة الله عليه رأي يحيى بن معين في زاوية بصنعاء وهو يكتب صحيفة معمر، عن أبان، عن أنس، فإذا طلع عليه إنسان كتمه، فقال أحمد بن حنبل له: تكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس، وتعلم أنها موضوعة؟ فلو قال لك القائل؟ أنت تتكلم في أبان ثم تكتب

---

(١) أبو أيوب، سليمان بن داود بن بشر المنقري البصري الشاذكوني، كان أبوه يتجر، ويبيع المضربات الكبار التي تسمى باليمن شاذكونة، فنسب إليها، كان من الحفاظ، وقال النسائي: ليس بثقة، مات سليمان في سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، موسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م، جـ١٠، صـ٦٧٩

(٢) محمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور الانصاري الرويفعى الإفريقى ت ٧١١هـ/١٣١١م: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ط١، ١٤٠٢ هـ /١٩٨٤م، جـ١٥، صـ ١٠٢

حديثه على الوجه؟ قال: رحمك الله يا أبا عبد الله، أكتب هذه الصحيفة عن عبد الرزاق عن معمر، عن أبان، عن أنس، وأحفظها كلها، وأعلم أنها موضوعة، حتى لا يجيء بعدنا إنسان فيجعل بدل أبان ثابتًا، ويرويها عن معمر عن ثابت عن أنس، فأقول له: كذبتَ، إنما هي أبان لا ثابت[1] وما كانت صحف المحدثين هذه إلا موردًا عذبًا للإمام البخاري نتج عنها أصح كتاب بعد القرآن الكريم وهو صحيح البخاري،ثم من بعده صحيح مسلم، وعامة كتب الصحاح بعد ذلك،كانت هذه الصحف من أهم مواردها التي حفظت لنا سنة رسوله الكريم ﷺ علي أكمل وجه.

ومنها أيضًا ماروي عن الخطيب البغدادي[2]: حدثني الأزهري قال كان ابن إسماعيل[3] حافظًا إلا أنه لين في الرواية، قال: وذلك أن أبا القاسم ابن

---

(١) ابن حبان: المجروحين من المحدثين، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م، ط١، جـ١،صـ٣٤

(٢) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م:تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ/١٩٩٦م، جـ٢، صـ ٥٣

(٣) محمد بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن عمر بن مهران بن مسرور، أبو بكر المستملي الوراق، ولد ببغداد سنة ٢٩٣هـ/٩٠٥م، متيقظ ثقة حسن المعرفة، وكانت كتبه قد ضاعت واستحدث من كتب الناس فيه بعض التساهل، توفي يوم الأحد لاثنتي عشرة بقين من ربيع الآخر، سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك،تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م، جـ١٤، صـ ٣٣٥

زوج الحرة[١] كان عنده صحف كثيرة عن يحيى بن صاعد[٢] من مسنده وجموعه، وكان ابن إسماعيل شيخًا فقيرًا يحضر دار أبي القاسم كثيرًا، فقال له إن هذه الكتب كلها سماعي من ابن صاعد، فقرأها عليه أبو القاسم من غير أن يكون سماعه فيها ولا له أصول بها

روى العسكري قصة طريفة علي التصحيف والتحريف، ذكر أنه "كان حيان بن بشر[٣] قد ولي قضاء بغداد، وكان من جملة أصحاب الحديث فروى يومًا أن عرفجة قطع أنفه يوم الكلاب، فقال له مستمليه: أيها القاضي، أنما هو

---

(١) محمد بن عبد الواحد بن محمد بن جعفر،أبو عبد الله البزار، يعرف بابن زوج الحرة، يقول الخطيب البغداداي: كان كثير السماع إلا أنه باع كتبه قديمًا واشترينا بعضها فسمعناه منه، وهو أكبر إخوته، وكان يسكن بدرب المجوس من نهر طابق، وسمعته يقول: ولدت في ليلة الجمعة لعشر بقين من رجب سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م، وولد أخي أبو الحسن بعدي بسنة ونصف،وكانت وفاته يوم الأحد الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م، ودفن من الغد في مقبرة باب الدير، وكان ثقة: تاريخ بغداد،جـ٣،صـ١٦٣

(٢) يحيى بن محمد بن صاعد بن كاتب مولى أبي جعفر المنصور الحافظ الإمام الثقة أبو محمد الهاشمي البغدادي، ولد سنة ٢٢٨هـ/٨٤٢م، ثقة ثبت حافظ، كان له كلام متين في الرجال والعلل يدل على تبحره مات في ذي القعدة سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م، الذهبي: تذكرة الحفاظ، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، جـ٢، صـ٢٤٠

(٣) ولي قضاء إصبهان في دولة المأمون، وولي قضاء الشرقية ببغداد في دولة المتوكل، قال ابن معين: لا بأس به، وتوفي سنة ٢٣٧هـ /٨٥١م، وكان من كبار أصحاب الرأي، الذهبي:تاريخ الإسلام،جـ١٧، صـ١٤٧

يوم الكلام، فأمر بحبسه، فدخل إليه الناس، فقالوا: ما دهاك؟ قال: قطع أنف عرفجة في الجاهلية، وابتليت به أنا في الإسلام"(١)

قال أبو حاتم رحمه الله: ومنهم من كان يكذب ولا يعلم أنه يكذب، إذ العلم لم يكن من صناعته، ولا أغبر فيها قدمه كما قال بعض أهل البصرة: كان بالعوقة شيخ عنده صحيفة عن حميد عن أنس، وكان مؤذنَهم، فلما مات قيل لي: إن في ذلك المسجد شيخ يحدث بتلك الصحيفة عن حميد نفسه، قال: فأتيته، فإذا شيخ عليه سجادة وأثر الخير فيه بين، فقلت له: صحيفة حميد، فأخرجها إلي، وإذا هي تلك الصحيفة بعينها، فقلت: اقرأ، فأخذ يقول: حدثنا حميد حتى أتى على آخرها، فقلت له: أي موضع حميدًا؟ قال: لم أره، قلت: فكيف تحدث عمن لم تره؟ قال: هذا لا يجوز؟ قلت: لا، قال: كان في هذا المسجد شيخ يؤذن ويحدث بهذه الصحيفة، فلما مات ولوني الآذان مكانه وأعطوني الصحيفة، وقالوا: أذن كما كان يؤذن، وحدث كما كان يحدث، فأنا أؤذن كما كان يؤذن، وأحدث كما كان يحدث(٢)

بداية انتهاء لفظ الصحيفة:

قبل انتشار الورق الذي ظهر في العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري،كانت مواد الكتابة هي الحجارة أو العظام، أو عسب النخيل أوالقماش، أو الجلود أو القراطيس وورق البردي ، ولم ترد إشارة إلى استعمال الكاغد في عصر السيرة والراشدين،والقراطيس اسم أطلق على ورق

---

(١) السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ/١٥٠٥م: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، جـ٢، صـ٣٠٣

(٢) ابن حبان: المجروحين من المحدثين،جـ ٢، صـ٧٠

مصنوع من لب نات البردي الذي تشتهر به بلدنا مصر،وقد عرف في جزيرة العرب قبل الإسلام، ويمتاز بصفحاته الكبيرة، غير أنه أغلى كلفة وأقل دوامًا من الورق وقد ورد ذكر القرطاس في القرآن الكريم،ولما أراد أبو بكر ﷺ جمع القرآن الكريم كان بعضه مكتوبًا في قراطيس، وكتب خالد بن الوليد ﷺ عهد الصلح مع دمشق على قراطيس، كما أن صكوك " الجار " كانت تكتب على القراطيس،وشاع استعمال القراطيس في بلاد العرب بعد فتحهم لمصر من قبل عمرو بن العاص ﷺ، وقد توسعت احتياجات الدولة للقراطيس ومواد الكتابة الأخرى، حتى خصص للقراطيس بيت كان ملتصقًا ببيت عثمان ﷺ،وأما الجلود فقد استعملتها العرب في كتابتها، ويسمونها الرق والأديم والقضيم،فأما الرق فهو الجلد الرقيق الأبيض الذي يكتب عليه، وأما الأديم فهو الجلد أيا كان،وقيل الأحمر، وقيل هو المدبوغ، وكان يستعمل في زمن الرسول ﷺ كثيرًا،وقد كانت الكتب الرسمية تطعِن وتختم منذ عصر الرسالة ، وباتساع العلاقات الخارجية كثرت هذه المكاتبات واحتاجت إلى الحفظ،وقد دون عمر ﷺ الديوان، وكان يحفظ في تابوت كل معاهدة كانت بينه وبين أحد ممن عاهده[1]

ومن هنا كانت أهمية الصحف نظرًا لقلتها وأهمية ماهو مكتوب بها لكن بدأ ذلك يتلاشي رويدًا رويدًا مع انتشار التدوين وكثرة ماهو مكتوب سواءً كان له أهمية أولا.

فالتدوين الجزئي قد بدأ في عصر بني أمية، وواكب التدوين بدايات حركة نقدية نشأت في مجالس الخلفاء والخاصة والأسواق، وهذان العاملان

---

(١) أكرم بن ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة – محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين، مكتبة العبيكان، صـــ٣٠١

التدوين الجزئي والحركة النقدية، بالإضافة إلى استمرار الرواية، هذا كله كان عاملًا في حفظ بعض العلوم وإيصالها إلى عصر التدوين العام، وفي العصر العباسي فُتِحَ باب التدوين على مصراعيه(١)

وبذلك كان التدوين في الصحف المتفرقة وفي الدواوين المجموعة نهاية القرن الأول الهجري ومطلع القرن الثاني رافدًا كبيرًا ساير الرافد الآخر، وهو الرواية الشفهية، وعاصره، ولم يقل عنه قيمة؛ وهما معًا كونا هذا الجدول العظيم الذي نسميه الرواية الأدبية والتاريخية (٢)

وكانت حركة التدوين في نشاط متزايد خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين وتدل الأخبار الموثوق بها على أن كثيرًا من هؤلاء الرواة قد عنوا بجمع الحديث وتدوينه والأدب الجاهلي وتدوينه، كل منهم بقدر ما استطاع، وأن اللاحق منهم كان يحاول أن يزيد عن السابق في هذا الميدان، وبعضهم كانت له تعقيبات وآراء في السابقين وأعمالهم الأدبية، كأنما كانوا يتبارون في الجمع والتدوين(٣)

وقد توارت الروايات الشفهية، كما توارت معها أهمية الصحف مع نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، لكن مع بداية القرن العاشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي؛ ظهر لفظ الصحيفة في ثوب جديد، وهذا ماسيتضح في الصفحات التالية:

---

(١) عفيف عبد الرحمن: الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديمًا وحديثًا، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط١,١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، صـ١٥

(٢) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، صـ ٥٩١

(٣) علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، صـ١٤٤

المبحث الثالث
الصحيفة في العصر الحديث

لا يستطيع شعب من الشعوب المتحضرة أن يمضي حياته اليومية من غير صحف، هذه ظاهرة اجتماعية حديثة لا يمترى فيها أحد، والصحافة في ذاتها وسيلة لا غاية، اهتمت بها الحكومة الحديثة كما حصرت عليها شعوبها مهما تختلف هذه الحكومات ومهما تتفاوت هذه الشعوب في إدراك حياتها السياسية وتناول شئونها الاجتماعية، فالحكومة النازية أو الفاشية تحرص، كما تحرص الحكومة الديمقراطية على هذه الوسيلة وتعمل على التمكين لها؛ لأن وراءها غايات قد تتشعب ومآرب قد تتباين، أما الوسيلة نفسها فقد فرضت وجودها على المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية جميعًا بلا استثناء، وحظ مصر من هذه الوسيلة كحظ غيرها من الجماعات المتحضرة، وكما دعت الحاجة إلى نشأة الصحف في أوربا منذ عدة قرون، كذلك أملت النظم الجديدة على مصر الحديثة أن تنشئ صحفًا تعددت أغراضها وتباينت أهدافها وإن يكن عمرها أقل من قرنين من الزمان للظروف السياسية والاجتماعية التي حالت دون النشاط الصحفي وأخرته عن أوروبا زهاء ثلاثة قرون،وقد عرفت الصحف في أوربا بعد أن ظهرت الطباعة بفترة طويلة إذ اقتصر فن جوتنبرج ت٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م، خلال قرن على طبع أوراق الدفاتر وكراسات الأعمال التجارية وما إلى ذلك من الأشياء التي تمت إلى الحياة العملية ولا ترتبط بالصحافة والصحف، غير أنه قد لوحظ في تلك الفترة أن من بين الكراسات التي طبعتها المطبعة في صدر عمرها كراسات تحمل الأنباء للناس، والأنباء كما نعلم أهم عناصر الصحيفة، وقد سبقت إذاعة الأنباء فن الطباعة، فكانت تلقى في أول الأمر مشافهة ثم مضى أصحابها ينسخونها، فلما عرفت

الطباعة صارت تذاع بعد طبعها في كراسات خاصة، ولم تكن إذاعة الأخبار المخطوطة من وظائف الحكومات بل تخصص بعض الأفراد لنسخ الأخبار المهمة ليقف على مضمونها النبلاء، وكان لهذه الطريقة أهمية خاصة في غضون القرن الخامس عشر في إيطاليا، وقد ساعدت الحياة الفكرية والتجارية والاجتماعية على نشاط هذه الطريقة الإخبارية، فإيطاليا في ذلك الوقت شعب راجت تجارته، وزكت علومه ومعارفه وسيطر تفكيره على معظم أرجاء أوربا، فكان طبعيًّا أن يتحسس نبلاؤه وأغنياؤه ومفكروه أخبار دويلات أوروبا والبلاد الأجنبية خارج القارة بما يحمله التجار وما تنقله أخبار السفن من أحاديث وروايات، فوجد أشخاص يحققون لهم هذه الرغبة، وكان هؤلاء يدفعون ثمنها بسخاء، وكانت البندقية قطب الدائرة، دائرة العلوم والتجارة ودائرة الأخبار المنسوخة أيضًا، ولم يكن نشاط تجار الأخبار المخطوطة يقف عند البندقية بل كان لهم عملاء وحرفاء في المدن الإيطالية والألمانية من التجار ورجال المال، وقلد الألمان وغيرهم الإيطاليين في هذه الصناعة الجديدة[1]

وفي القرن السادس عشر – الذي مع بدايته حكم العثمانيون مصر – ظهر الخبر المطبوع فلم يقض على الخبر المنسوخ وذلك لندرة المطابع أولًا وهي في أكثرها محتكرة من الحكومة أو رجال الدين كما أن ناشري الأخبار المخطوطة كانوا قلة قادرة صقلتها المرانة فتمسكت بمستواها العالي في أخبارها وأسلوبها، وتبع ذلك تمسكها بعملائها وحرفائها، ولما انتشرت الطباعة وأصبح الخبر المطبوع سهل النشر يسير التناول هبط مستواه ولم يعد يليق إلا

---

(١) إبراهيم عبده: تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨/ ١٩٨١م، مؤسسة سجل العرب،القاهرة، ط٤، صـ ١٣

بالعامة، كما أن المطبوعات جميعًا كان موضع رقابة خاصة من السلطات كما كانت موضع شكوكها وتضييقها، ففضل العظماء الأخبار المنسوخة وهي أخبار لا تخضع لرقابة رقيب ولا يعنيها أكان في الحكم سلطة استبدادية أم سلطة عادلة، لذلك كان أخبارها أصدق وأقرب إلى الحقيقة، ولهذه الصحف المخطوطة آثار في المكتبة الأهلية بفيينا وبعضها الآخر في مكتبة الفاتيكان، ولقد لقي مذيعو الأخبار من البابوات والحكومات المختلفة ضيقًا وحرجًا شديدين فصودرت أموالهم،وبترت أيديهم، وقطعت ألسنتهم، ونصبت المخانق لكثير منهم، ولم يوهن نشاط مذيعي الأخبار المخطوطة والمطبوعة أو يفتر بالرغم من هذه القسوة التي تم ذكر بعضها، واضطرت السلطات آخر الأمر إلى الرجوع عن هذه القسوة، بل جعلت تترضى بعض المخبرين المحترفين وتكلفهم العمل لحسابها فنفقت سوق هذه التجارة في أوروبا عامة وروما خاصة،لكن الخبر المنسوخ لم يعمر طويلًا بل أخذ يتقهقر أمام الخبر المطبوع بانتشار الطباعة واعتدال ثمنه،وتساهل الحكومات وتنازلها عن رقابته، فتلونت الأخبار وتباينت، وظهرت شعرًا ونثرًا، ولم تعد الأخبار وقفًا على الحوادث العادية المتواضعة، بل كان للحروب والحوادث الطبيعية والمشاكل الدولية أثر في ترويج هذه الصناعة بما كانت تذيعه المطابع في الأنباء المثيرة، كما عمدت بعض الأوراق الخبرية إلى نشر فيض من الحوادث المنقولة عن أوراق دول أخرى، وقد كبرت أوراق الخبر رويدًا ثم حثيثًا، فإذا هي دوريات تظهر كل ستة أشهر ثم دوريات تظهر كل شهر ثم كل أسبوع ثم كل يوم: وقد شهد القرن السابع عشر مولد هذه الدوريات جميعًا في فرنسا وانجلترا، وفي غيرهما من البلاد الأوربية ومضت هذه النهضة قدمًا وعبرت البحار إلى أمريكا الشمالية، بينما مضى الشرق في عزلته وتزمته، فلم يعرف الطباعة إلا

بعد أن عرفت أوروبا الكتب المطبوعة والصحف السيارة في المدن والمقاطعات المختلفة، وكان من الأمور الغريبة حقًّا ألا تشارك مصر دويلات أوروبا في تقدير الطباعة وتكريم الصحافة، وألا تمر بها الأدوار الصحفية التي مرت بأوروبا، وأن تكون آخر بلاد الشرق الأدنى معرفة بالمطبعة وأقلها احتفالًا بها، ذلك أن مصر أبقت على تراث فكري كاد يندثر بسقوط الدولة العربية وتفرق كلمتها، وقد حملت علم النهضة ولم يقف نشاطها في العلوم والفنون بالرغم من غشاوات الجهل التي أعمت بعض حكامها، وبالرغم من نوبات الفتور التي مست الحياة الفكرية المصرية آنًا بعد آنٍ منذ عهد الفاطميين إلى أيام المماليك البحرية والبرجية "الشراكسة" وقد ظهر فيها كثير من العلماء الأدباء والمؤرخين كالقلقشندي وابن هشام، وابن خلكان وابن تغري بردي وغيرهم من فطاحل العلم والتاريخ، وقد اتصلت مصر في عصورها الوسطى بممالك البحر المتوسط وجنوب أوروبا وجمهورياته المهمة للمتاجرة معها، وكان معها واسطة العقد بين الشرق والغرب، وكان يرجى لها التوفيق إلى كل طريق تعرفه أوروبا في ذلك الوقت، وكانت جمهورية البندقية وغيرها من البلاد الأوربية لاستقبال النهضة الحديثة، وفي هذه الفترة عرفت الطباعة في مدن إيطاليا والمدن الحرة الأخرى وكان الأمل واسعًا في أن يستفيد أعظم عملاء أوروبا من هذا الحديث الجديد لو استمر الاتصال قائمًا وعرف المصريون قدره، غير أن مركز مصر قد تدهور بعد كشف رأس الرجاء وسلوك التجارة سبيلها عن طريقه، فانقطعت الصلة بين مصر وعملائها إلى حد بعيد، وأقفلت الأبواب دون الإحساس بخطر المطبعة زهاء ثلاثة قرون كانت مصر قد بلغت فيها التقهقر والاضطراب مبلغًا تقوضت فيه دعائم الحياة السياسية والاقتصادية، وانطفئ ماتبقي من حضارة الأمس، وشغلت بنزوات

حكامها وقاست من جهلهم وعسفهم ما قاست؛حتى انقطع ما بينها وبين كل جديد من أسباب، وأهمل شأن المدارس والتعليم وبيعت الكتب وانتهبت، وتخربت دور الفن وعماراته، وكانت مصر آخر من عرف المطبعة بين دويلات السلطنة المهمة(١)

ففي عام١١١٤هـ/ ١٧٠٢م ظهرت في لندن صحيفة الديلي كوران Daily courant أولي الصحف اليومية في العالم، أماصحيفة التايمز Times فقد أسست في عام١٢٠٢هـ/ ١٧٨٨م وفي عام١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م ظهرت صحيفة الكوريه courier وفي عام١٢٣٠هـ/ ١٨١٤م استخدمت آلات الطباعة البخارية لطباعة صحيفة التايمز اللندنية، وكل ذلك أسدل بغطائه علي الصحافة العربية، رغم أن انتقال الطباعة والمطبعة إلي عالمنا العربي جاء بعد قرنين من اختراع جوتنبرج للمطبعة (٢)

فإلى أوربا يرجع الفضل في صناعة الحروف الشرقية والعربية، عنوا في أول الأمر باللغة العبرية وحروفها لأنها لغة الإنجيل والتوراة، وقاموا بنشرهما في إيطاليا، ثم مضوا ينشرون كتبًا دينية مختلفة، ثم اتجهوا إلى العلم فنشروا باللغة العربية بعض كتبه، ففي مستهل القرن السابع عشر احتدمت المنافسة بين روما وباريس وليدن ولندن على طبع الكتب العبرية والعربية، وأحس الشرق هذه المنافسة فجلب إليه الطباعة من الغرب ليقوم هو أو يساهم على الأقل في نشر آثاره وتعاليمه، وقد أوحت بذلك أيضًا الفكرة الدينية، لذلك بدأت المطبعة في الشرق أول ما بدأ تنشر كتبًا دينية باللغة العبرية ثم كتبًا أخرى

---

(١) إبراهيم عبده: تطور الصحافة المصرية، صـ ١٦

(٢) فتحي حسين عامر: تاريخ الصحافة العربية،العربي للنشر والتوزيع، القاهرة،ط١,١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤م صـ٨

باللغة العربية، وتخلصت أخيرًا من الاتجاه الديني، ومضت تذيع المؤلفات والتراجم العلمية والأدبية،ولقد سبقت الآستانة جميع بلاد الشرق في معرفة الطباعة، وإلى اليهود يعود الفضل في نشر هذه الصناعة، فقد أنشأ أحدهم مطبعة عبرية في عاصمة الخلافة لتنشر كتبهم وتعاليمهم الدينية ولتغنيهم عن المخطوطات التي كانت تكلفهم أجرًا كبيرًا وجهدًا عسيرًا، وكان هذا اليهودي ينشر بين آن وآخر كتبًا في التاريخ والعلوم بجانب كتب الدين اليهودي وتعاليمه، وقد بدأ عمله هذا في أواخر القرن الخامس عشر ولم تعرف الآستانة الحروف العربية إلا في أواخر القرن الثامن عشر أي بعد أن قطعت المطبعة العبرية من وجودها في الشرق أكثر من قرنين من الزمان، وقد نشط اليهود في بلدان الشرق الأخرى فأنشئوا المطابع هنا وهناك،وأخذت الطباعة تنتشر في بلاد الشرق الأدنى، وقد بدأت في الآستانة وحروفها عبرية، غير أن هذا الشرق ولغته الفضلى اللغة العربية، عني عناية خاصة بحروفها، فأنشأ أحد البطارقة مطبعة عربية في حلب في أوائل القرن الثامن عشر حوالي سنة١١١٤هـ/ ١٧٠٢ م، وقيل: إن حروفها في بخارست وهي أول مطبعة عربية في الشرق، ثم أنشئت في الأستانة المطبعة العربية الثانية وقد لقي إنشاؤها عنتًا شديدًا من الحكومة ورجال الدين فقد أفتى العلماء بأن المطبعة رجس من عمل الشيطان، إلى أن قيض الله لها بعض المصلحين، واستطاع الصدر الأعظم بمعاضدة بعض هؤلاء العلماء أن يستصدر من السلطان فرمانًا عاليًا موقعًا عليه بالخط الشريف في سنة١١٢٤هـ/ ١٧١٢م بالإذن لسعيد أفندي "وقد صار صدرًا أعظم فيما بعد" بإنشاء المطبعة وطبع جميع أنواع الكتب(١)

(١) إبراهيم عبده: تطور الصحافة المصرية، صـــ١٣

كان هناك تغير هام حدث في ستينيات القرن التاسع عشر، هو نشوء الصحافة الدورية، فحتى ذلك التاريخ، كانت الصحف الهامة هي فقط تلك التي كانت تصدر عن الحكومة في القاهرة وإسطنبول وتقتصر، إن لم يكن كليًا، على نشر الأخبار الرسمية، نعم، كانت تصدر أيضًا بعض الصحف بالفرنسية واليونانية والأرمنية، لكن لم يكن هناك بالفعل أي صحيفة عربية، إلى أن أتاح ازدياد عدد المطابع وكتاب العربية وقرائها في الستينيات، فضلًا عن تساهل نظام الحكم النسبي في تركيا ومصر، إنشاء صحف ومجلات خاصة، وبقيت هذه الصحف والمجلات، طوال الثلاثين سنة اللاحقة، في أيدي المسيحيين اللبنانيين بصورة عامة، يصدرونها في بيروت أو القاهرة أو إسطنبول، مما جعل قراء البلدان العربية طيلة جيل بكامله، يتغذون بأفكار الكتاب والمفكرين الجدد في لبنان،وكان أول كاتب لبناني حظي بالشهرة والنفوذ فارس الشدياق ت١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م الذي رحل إلي باريس ومن باريس ذهب إلى إسطنبول بدعوة من السلطان عبدالمجيد الأول ت١١٧٨هـ/ ١٨٦١م ، حيث أصدر، في١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م، صحيفة «الجوائب» التي استمرت على الصدور حتى١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م، ثم مات بعد ثلاث سنوات، طالبًا أن يدفن في لبنان، ويقال إنه عاد إلى حضن الكثلكة قبيل وفاته، مما يدل على الثبات الذي كان كامناً تحت تقلبات حياته[١]

وكان موقف الصحف كموقف الكتاب، فقد ناصرت الأهرام جميع الحكومات بلا استثناء ولم تكتب كلمة هجوم واحدة ضد محمد محمود أو

---

(١) ألبرت حوراني ت ١٤١٣ هـ/١٩٩٢م: الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨/١٩٣٩م، ترجمه إلى العربية: كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦ م، صـ١٢٤

إسماعيل صدقى أبان حكمهما الاستبدادى الذي قيدت فيه الحريات وحطمت القيم عام ١٩٢٩ و ١٩٣٠م، وانتقلت بعض صحف الوفد من تأييد الوفد إلى خصومته ثم عادت إلى الوفد كرة أخرى وتحولت جريدة الشعب من مالك إلى مالك وتحول الكتاب معها كالعبيد – على حد تعبير محمد زكى عبد القادرت ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ولطالما هاجمت الصحف واحدًا من الزعماء أو رؤساء الحكومات واتهمته بالخيانة ثم عادت وأثنت عليه،أمثال توفيق نسيم – الذي اتهم بالخيانة، ثم وصف بالوطنية وقال عنه سعد زغلول أنه يستحق تقدير الوطن، وقال فكرى أباظة ت ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م، أن الصحفى المصري عندنا يطعن حسب الظروف ثم يمدح اذا تغيرت الظروف، يندفع في كلتا الحالتين وينسى أن يحفظ اتزانه حفظًا لخط الرجعة في المستقبل، وقال: حذار أن تقول أن في مصر جريدة على الحياد بين الأحزاب وأن وجدت جريدة على الحياد فاعلم أنه حياد ضعيف لا قيمة له، وقال أن أى صحيفة كانت تقول في الهجوم على صحيفة أخرى: الجريدة الصفراء النكراء، جريدة الخونة، ودعاة التردد والهزيمة، وعن أى كاتب"الغبى الأحمق المأجور"، وقال مصطفى الرافعى ت١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م: لوعرفت الصحف وأهلها لرأيت أن العمل فيها من أشق الأعمال على النفوس الكريمة فهذه ليست صحفًا وإنما هى حوانيت تجارة، وأنه لا يقتل النبوغ شئ كالعمل في الصحافة فإن أساس النبوغ العمق والتغلغل في أسرار الأشياء، أما الصحافة فلها أساس غير هذا، وحالة الجمهور تجعل للصحافة عندنا مكانًا طبيعيًا لرجل السياسة قبل غيره، وقال زكى مبارك ت ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م: أن عشرات من الكتاب اشترت الحكومات المختلفة أقلامهم وقيدت مواهبهم وأغرتهم بالمرتب الثابت وكانت أجدى عليهم من شرف العمل لتحرير البلاد،ويرجع الباحثون ضعف الصحافة إلى أنها

خضعت لسيطرة جهات متعددة منها الإستعمار والقصر والأحزاب والحكومات، ثم خضعت لسلطان رأس المال والإعلان، وكان هذا في أيدى عملاء الصهيونية وأن عددًا كبيرًا من كتاب الصحف المصرية لم يكونوا من المصريين ولذلك لم تكن عواطفهم وطنية، وكان أغلب أصحاب الصحفيين ومحرريها من غير المصريين أعوانًا الحاكم والمستعمر، وقد صور هذا النفوذ الكاتب البريطانى (بولسون نيومان) في كتابه (بريطانيا العظمى في مصر) يضاف إلى هذا ولاء المثقفين للطبقة الحاكمة وللنفوذ الأسرى والإقطاعى الموالى للإنجليز،وقد كان للاستعمار أثره في الصحافة فهو صانع هذا الاتجاه من النفاق والهزل والسخرية والتخدير وخداع الجماهير والتميع والبلبلة[١]

الصحافة الصفراء:

كان أول ظهور مصطلح الصحافة الصفراء من خلال مسلسل مصور أو مرسوم،نشرته صحيفة "نيويورك ورلد" بإسم زقاق هوجان، وحظي بشعبية جارفة بين جماهير القراء من العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وكان بطله صبيًا يرتدي رداءً أو جلبابًا أصفر، فعرف بإسم الصبي الأصفر وهو مايثير بالضرورة تساؤلًا ملحًا عن السر في الأثر العميق الذي مارسته شخصية الصبي الأصفر علي الأساليب الصحفية بصفة عامة في حين أنها كانت مجرد شخصية في مسلسل صحفي للرسوم التي أتقنها الفنان الأمريكي ر.ف. أوتكولت (١٨٦٣– ١٩٢٨م) والذي ابتكر شخصية الصبي الأصفر الذي كان القاعدة التي انطلقت منها الصحافة الصفراء اسمًا وفعلًا،فقد كان أول شخصية

---

(١) أحمد أنور سيد أحمد الجنـدي ت ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١م: تـاريخ الغـزو الفكـري والتعريب خلال مرحلة ما بـين الحـربين العـالميتين ١٩٢٠/ ١٩٤٠، دار الاعتصـام، القاهرة، صـ٣٣٠

ناجحة ومؤثرة في نفوس القراء، لدرجة أن شعبيته الجارفة لم تتسبب في زيادة توزيع الصحف التي نشرت مسلسله إلي أرقام قياسية فحسب؛بل كانت أيضًا أول من أثبت أن البطل في شرائط الرسوم المسلسلة والمعروفة بإسم " comic strips" يمكن أن يكون شخصية شعبية تعود علي ناشريها بأرباح ضخمة مثلها في ذلك مثل آية سلعة رائجة، وفي الواقع فإنه لهذين السببين اعتبر الصبي الأصفر ومبتكره ر.ف.أوتكولت،مؤسسين لرسوم الشرائط المسلسلة وجعلها جزءًا عضويًا في الثقافة الأمريكية بصفة خاصة والمجتمع الأمريكي بصفة عامة (١) لكن كان مفهوم الصحافة الصفراء في المنطقة العربية غامضًا ومراوغًا إلي حد كبيرولا يزال، فلم ير فيها العرب سوي صحافة الفضائح والجرائم وكل ماهو غير أخلاقي، ولم يزل هناك لبس بين الصحافة الصفراء والكتب الصفراء، وهو مصطلح مقصور علي الأدبيات العربية لكنه غامض ومراوغ بدوره، وإن كان يعني أحيانًا المخطوطات أوكتب التراث القديم التي لم تطبع سوي مرة أو مرتين، وأحيانًا أخري كتب الخرافة أوالجدل، أي أنه يقلل بصفة عامة من قيمة الشيء المنشور سواءً أكان مخطوطًا أم مطبوعًا(٢)

ولعل وسائل الأعلام –وخاصة الصحافة– هي المسئولة الكبرى عن هذا "الانهيار الخلقي" لدى بعض الشباب، فلا يكاد يقرأ المرء فيها إلى جانب قصص الفساد قصة واحدة لنموذج خلقي رفيع، أضف إلى ذلك ما أضافه عصر الفيديو من عوامل خلل إضافية في النسق القيمي الأساسي، وإذا لم

---

(١) نبيل راغب: الصحافة الصفراء الجذور والفروع، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، صـ١٣

(٢) نبيل راغب: الصحافة الصفراء، صـ٧

نتدارك الأمر بالحرص الواجب من خلال تقديم نماذج سلوكية، ومثل عليا للشباب، بأسلوب العرض المناسب والجذاب، وليس بأسلوب الوعظ والخطابة، فإن كارثة أخرى توشك أن تحل[١]

(١) آمال صادق – فؤاد أبو حطب: نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، صـــ٣٤٣

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وفضلنا به على جميع الأنام وجعلنا من أمة سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وبعد؛

لم يولد لفظ الصحيفة فجأة في الكتابات التاريخية، بل له جذور ضاربة في أعماق التاريخ منذ أن بدأ الله الخليقة،فكانت ميثاق الله تعالي إلي أنبياءه،ليرشدوا به البشر إلي معرفة سر وجودهم وكيف الطريق إلي عبادته جل في علاه،وبقي لفظ الصحيفة إلي عهد نبينا المصطفي ﷺ، فعندما كان ﷺ في مكة وكانت مقاطعته ﷺ وبنو هاشم أحبت قريش أن تعلم بها القبائل أجمع في كل الجزيرة العربية فعلقتها في صحيفة بأستار الكعبة، وحينما ذهب النبي ﷺ إلي المدينة كان من أول ماقام به أن وضعًا ضوابطًا لكل من يعيشون بها وكتب ذلك في وثيقة المدينة ليعلمها الجميع ويحترمون مابها ولا يتجاوزه، وماكانت الصحف تستخدم للإعلام في صدر الإسلام إلا وأعيد تدوير ذلك في العصر الحديث بنفس المنهجية لكن بصيغة أخري،هي التي يتعامل بها الناس الآن.

وقد توصلت هذه الدراسة إلي عدة نتائج يمكن ذكرها كالتالي:

١-كانت الصحف من القدسية بمكان أن كانت رمزًا لصلة الخلق أجمعين بخالقهم جل في علاه عن طريق رسله جل وعلا إليهم.

٢-كان مايكتب في الصحف عن العرب قبل الإسلام يعد ميثاقًا لا تجوز مخالفته أو نقضه

٣- بعد الإسلام كان ينتقد الشخص الذي يكتب صحفًا من مخيلته فكانوا يعابون بقولهم:قومًا أخذوا العلم عن الصُحف من غير أن لقوا فيه العلماء فكان يقع فيما يروونه التغيير

٤- أن الصحيفة إذا كتبها شخص من مخيلته ليس فقط يخطئ ويصيب لكن أحيانًا يكون تبعًا لهواه، أويمهد إلي غرض يسعي للوصول إليه.

٥- كانت الصحيفة الصفراء في عهد الدولة العباسية التي لم يوجد منها إلا نسخة واحدة،ولا يعلم مدي صحتها،تدور حولها الكثير من الشكوك، وظهر لفظ الصحافة الصفراء في العصر الحديث أيضًا يثار حوله الكثير من الشكوك.

٦- توارت الصحف عدة قرون من الزمن لكن لم تكن لتختفي،بل لتظهر إلي العالم ثانية في ثوب جديد.

٧- لابد من العمل علي دعم الصحافة الإسلامية وتزويدها بالترجمات الهامة لمبادئ الدين، والرد على الشبه الموجهة إليه، وتفسير حقائقه تفسيرًا علميًا عصريًا، وتعنى بأخبار العالم الإسلامي، وتقدم الدراسات الكافية للإفادة منها فى مجال الدعوة.

أولًا المصادر:

ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

الأصفهاني: أبو عبد الله حمزة بن الحسن ت ٣٦٠هـ/٨٧٣م: التنبيه على حدوث التصحيف، تحقيق: محمد سعد أطلس، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.

البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م: دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.

تقي الدين الفاسي: محمد بن أحمد الحسني المكي ت ٨٣٢ هـ/١٤٢٨م: العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩م ١٩٩٨ م.

الجاحظ:عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م:الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣م.

ابن جوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك،تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.

ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م،: الثقات،تحقيق السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٣٩٥/ ١٩٧٥م.

:صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٢، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م.

:المجروحين من المحدثين، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢.هـ / ٢٠٠.م.

ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م: تقريب التهذيب، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد،سوريا، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

الحصري القيرواني: إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري ت ٤٥٣هـ/١٠٦١م: زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت.

الحميري: محمد بن عبد المنعم ت ٩٠.هـ / ١٤٩٥ م: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة،بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٠م.

الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م:تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ/١٩٩٦م.

المتفق والمفترق، تحقيق محمد صادق الحامدي، دار القادري، دمشق،١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

الدينوري: أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي ت ٣٣٣هـ/٩٤٤م: المجالسة وجواهر العلم، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْمازت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م:: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام،ت حقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت.، ط٢، ١٤١٣ هـ /١٩٩٣ م.

تذكرة الحفاظ، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م

سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، موسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م.

العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.

الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد ت ٥٠٢هـ/١١٠٨م: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء،دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢.هـ/ ١٩٩٩م.

ربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي ت ٦٣٤هـ/١٢٣٧م: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

الزجاجي:عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م: مجالس العلماء: تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله ت ٦٥٤ هـ/١٢٥٦م: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق محمد بركات، كامل محمد الخراط، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط١، ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م.

ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البغدادي ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م: الطبقات الكبري،تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤١.هـ / ١٩٩.م.

السفاريني: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سالم ت ١١٨٨هـ/١٧٧٤م: غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت،ط٢، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢ م.

السيد أبو المعاطي النّوري: الجامع في الجرح والتعديل، عالم الكتب، بيروت،ط١، ١٤١٢ هـ /١٩٩٢ م.

السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ/١٥٠٥م: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.

المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

أبوطالب طالب المكي ت ٣٨٦ هـ /٩٩٦م: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٦ هـ /٢٠٠٥ م.

الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي ت ٣١٠هـ/٩٢٢م: تاريخ الطبري، دار التراث، بيروت،ط٢، ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧م.

الطيب بامخرمة: أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي ت ٩٤٧ هـ/١٥٤٠م: قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، دار المنهاج، جدة، ط١، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٨ م.

ابن عبدالبر: أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م: الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٢م.

الفسوي: يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي ت ٢٧٧هـ/٨٩٠م: المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

أبوالفضل المقرىء: عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الرازي ت ٤٥٤هـ/١٠٦٢م: أحاديث في ذم الكلام وأهله، تحقيق: ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع، دار أطلس للنشر والتوزيع، الرياض،ط١ ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

الفيروزأبادي محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي ت ٨١٧ هـ/١٤١٤م: البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت،ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق: الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٥م.

القلقشندي: شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد ت ٨٢١ هـ /١٤١٨م: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧ م.

ابن كثير: أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٢م: البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

قصص الأنبياء، دار الكتب الحديثة،القاهرة،ط١، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م.

مجير الدين العليمي: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي الحنبلي ت ٩٢٨ هـ/ ١٥٢١م: التاريخ المعتبر في أنباء من غبر «وهو كتاب جامع لتاريخ الأنبياء وتاريخ الإسلام وتراجم أئمته العظام إلى مبتدأ القرن العاشر الهجري»،دار النوادر، سوريا، ط١، ١٤٣١ هـ/ ٢٠١١ م.

المسعودي:أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م: أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

ابن المطهر بن طاهر المقدسي ت نحو ٣٥٥هـ/٩٦٥م: البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد،د.ت.

المناوي: محمد عبد الرؤوف ابن تاج العارفين ت ١٠٣١ هـ /١٦٢١م: التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت،ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

ابن منظور: محمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور الانصاري الرويفعى الإفريقى ت ٧١١هـ/١٣١١م: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ط١، ١٤٠٢ هـ /١٩٨٤م.

مؤلف من القرن الثالث الهجري: أخبار الدولة العباسية، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري الدكتور عبد الجبار المطلبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

ابن النديم: الفهرست،تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت،ط٢، ١٤١٧ هـ /١٩٩٧ م.

نشوان بن سعيد الحميرى اليمني ت ٥٧٣ هـ/١١٧٧م: الحور العين، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨ م.

النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية،دار الكتب العلمية،بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م.

الواقدي: محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م: المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ /١٩٨٩م .

اليافعي: أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

ثانيًا: المراجع:

إبراهيم عبده: تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨/ ١٩٨١م،مؤسسة سجل العرب،القاهرة.

أحمد أنور سيد أحمد الجندي ت ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١م: تاريخ الغزو الفكري والتعريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين ١٩٢٠/ ١٩٤٠، دار الاعتصام، القاهرة.

أكرم بن ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة – محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين، مكتبة العبيكان.

ألبرت حوراني ت ١٤١٣ هـ/١٩٩٢م: الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨/١٩٣٩م، ترجمه إلى العربية: كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦ م.

آمال صادق – فؤاد أبو حطب: نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين، مكتبة الأنجلو المصرية.

جهاد التُربانى: مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ، دار التقوى ، القاهرة، ط١، ١٤٣١ هـ / ٢٠١.م.

جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

حسين بن محمد المهدي: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، وزارة الثقافة، اليمن ١٤٣١هـ/٢٠٠٩م.

الرافعي: مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر ت: ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م: تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي،بيروت.

شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر،ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

صالح بن عبد الله بن حميد: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط٤،د.ت.

عبدالعزيز صالح:الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق، مكتبة دار الزمان،د.ت.

عفيف عبد الرحمن: الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديمًا وحديثًا، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط١,١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ /١٩٩١م.

علي محمد محمد الصلابي: علي بن أبي طالب رضي الله عنه شخصيته وعصره، الطبعة الأولى للناشر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

فتحي حسين عامر: تاريخ الصحافة العربية،العربي للنشر والتوزيع، القاهرة،ط١,١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤م.

ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط٧، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨ م.

ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط٧، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨ م.

نبيل راغب: الصحافة الصفراء الجذور والفروع، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

الهاشمي: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى ت ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، بيروت.

ثالثًا المعاجم:

القزويني الرازي: أحمد بن فارس بن زكرياء ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م :معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون،دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م،

ابن منظور: محمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى ت ٧١١هـ/١٣١١م: لسان العرب، دار صادر،بيروت،ط٣، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م.

نشوان بن سعيد الحميرى اليمني ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم،تحقيق حسين عبدالله العمري، دار الفكر المعاصر،بيروت،ط١، ١٤٢٠هـ /١٩٩٩ م.